الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة زيان عاشور - الجلفة -
كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية
قسم الفلسفة

المبدأ الحسي عند دفيد هيوم وتطبيقاته على العلية كمثال

مذكرة لنيل شهادة الماستر فلسفة

تخصص فلسفة عامة

إعداد الطالبة :

الزاوي حياة

إشراف الأستاذ :

طحطاح المبروك

الموسم الجامعة :

(2022/2021)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ
الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ

[سورة النمل ١٩]

شكر و تقدير:

الحمد لله واجب الوجود الدائم العطاء و الجود الموجود قبل كل موجود ثم الصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا و حبيبنا و عظيمنا وقائدنا محمد ملأ العلا بكماله كشف الدجى بجماله عظمت جميع خصاله صلو عليه وسلمو صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ، الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه، ويدفع نقمه ، و يكافىء مزيده ، الحمد لله الذي أعانني على إتمام هذا العمل ، ولأن من شكر الناس فكأنما شكر الله ، يسرني و يشرفني أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير و الإمتنان إلى الأستاذ المشرف " طحطاح المبروك " على تقديم العون لي و على قدرة تحمله وصبره خلال فترة إنجازي لهذا البحث .

كما أتقدم بشكري و عرفاني إلى من سهرا على تربيتي وكانا سندا قويا لي خلال كافة حياتي و مشواري الدراسي و الجامعي إلى أبي " الزاوي المحفوظ " فلولاه لما أنا في هذه المرحلة، و أمي التي تحملت معي كل الصعاب و كانت دعم قوي لي في كل حياتي ، و إلى إخوتي نجاة وجميلة وجمال الدين و أسماء و عبد العزيز و حمزة الذين عملو جاهدين على توفيرهم ما كنت بحاجته خلال هذا البحث ، وإلى خطيبي (ب- ن)، و عائلته الكريمة و إلى الصديقة الوفية "خولة " ، وإلى كل العائلة أشكركم جزيل الشكر .

كما أتقدم بالشكر إلى كل من لأساتذة الذين قدمو لي المساعدة خلال مشواري الجامعي كل من لأستاذ "بن سليمان الصادق" و لأستاذ " طيبي الميلود" .

كما أتقدم بالشكر الجزيل لإدارة قسم الفلسفة و الاساتذة وإلى كل الأصدقاء الأعزاء وإلى كل من علمنا حرفا من الطور الإبتدائي إلى الطور الجامعي ، خاصة معلم الابتدائي الذي درسي طيلة مشواري في الطور الإبتدائي خوني لخضر ، اشكركم جزيل الشكر .

وشكرا

إهداء:

إلى أبي وسندي و تاج رأسي الذي أفتخر به ، الذي تعب من أجلي فلولاه لما وصلت إلى هذا اليوم حفظه الله على كل المجهودات المبذولة و الدعم المقدم لي طيلة حياتي .

وإلى التي سهرت على راحتي وأنا صغيرة ثم حرصت على مستقبلي و أنا كبيرة .

إلى التي غمرتني بحبها مريرا إلى من جعل الله الجنة تحت قدميها

إلى أمي قرة عيني حفظها الله في عمرها على المجهودات المبذولة طيلة حياتي .

و إلى الإخوة و الأخوات نجاة – جميلة – جمال الدين – أسماء – عبد العزيز – وأخر العنقود حمزة .

و إلى خطيبي (ب - ن) و عائلته الكريمة .

إلى الاخت و الصديقة الوفية " خولة "، إلى كل العائلة والأصدقاء الذين ساعدوني ولو بدعوة خير طيلة مشواري الدراسي و الجامعي .

الزاوي .ح

مقدمة

مقدمة:

ينتمي موضوع الذي نحن بصدد دراسته ومناقشته إلى القضايا الفلسفية العامة ، وهومن بين المشكلات التي سادت في الفلسفة الحديثة ، حيث نجد الفيلسوف الأسكتلندي "ديفيد هيوم "من أبرز الفلاسفة التجريبين الذي ذاع صيته في العصر الحديث ، من خلال عمله على تطوير مفهوم جديد للفلسفة ، وذلك بناء على تجربته التجريبية ورفضه للميتا فيزيقا، بالنسبة له يجب أن تصبح الفلسفة علما للطبيعة البشرية ، والشيء الوحيد الذي تدرسه هو الطبيعة البشرية، والتي لاتقتصر على العقل وحده بل تمتد إلى جميع الأعمال التي ينجزها الإنسان في الحياة ، كالإنفعالات، والتخيلات ، والسلوكيات ، والطريقة التي إعتمدها "ديفيد هيوم " في عمله هذا هي الطريقة التجريبية ، أي تحقيق تجريبي في الطبيعة البشرية، وخاصة النيوتونية لأنه كان معجباً ومتأثرً جدا "بنيوتن" وإنجازاته في العلوم الفيزيائية ، حيث أراد أن يكون نيوتن للفلسفة ، وذلك من خلال نفس الطريقة االتجريبية للتفكير في دراسة علم النفس البشري ، حيث اراد "د يفيد هيوم "أن يخ لص الفلسفة التجريبية من أي عنصر غير تجريبي ، وأن يتغلب على الصعوبات التي واجهت سابقية، وهذا من خلال ما تناوله في "كتاب الرسالة في الطبيعة البشرية " ، حيث يبحث "هيوم" عن الأصول أو العناصر الأولى والبسيطة التي تتألف منها تجاربنا وأفكارنا ، فانطلق من المبادئ الأساسية التي تحرك النفس والإنسانية ، من مشاعر ، و أحاسيس وأفكار، فيدرس "الطبيعة البشرية" من منطلق أنها مكونة من إدراكات بسيطة يصنع منها الفهم إدراكات مركبة ، فكان تحليله لأصل البنية الفكرية من خلال تقسيمها إلى كل من الإنطبعات والأفكار وتمييزه بينهما ، وإعتباره أن كل ما يصدر عن الإنسان من إنفعالات وسلوكات كلها مرتبطة بالتجربة ، ومحاولته معرفة العلاقة بين كل من السبب والمسبب من خلال دراسة الأسس التجريبية.

وبهذا يمكن طرح الإشكالية التالية :

ماهي الأسس الأولى التي إستند إليها هيوم في فلسفته؟ أو بصغة أخرى ما المبدأ الذي إعتمده هيوم لإختبار قضايا الفلسفة و منها قضية السببية أو العلية ؟ ، وبهذا يمكننا تجزئة الإشكالية إلى :

1)- ما المبدأ الذي أسس عليه هيوم فلسفته ؟

2)- كيف طبقه على العلية ؟

3)- ماهي النتائج التي توصل إليها ؟

ولمعالجة هذا الموضوع ،و للإجابة عن هذه الأسئلة إقترحنا خطة تتضمن ثلاث فصول كالتالي :

عرضنا في الفصل الأول التعريف أو السيرة الذاتية للفيلسوف "ديفيد هيوم" ثم مؤلفاته وأهم المصادر الفكرية له ، وقد كان لزاما علي التعرض لحياته لأني لاحظت ندرة الدراسات حول حياته ، وهي غير كافية ، فأغلب الدراسات لم تتعرض للسيرة الذاتية للفيلسوف، وهذا مادفعنا للتعريف به أكثر للقراء والباحثين .

وفي الفصل الثاني تطرقت إلى تحليل "ديفيد هيوم" للمعرفة من خلال تقسيمه مدركات الإنسان من إنفعالات وسلوك ، وأكد على أن كل معارفنا ناتجة عن الخبرة الحسية ، أي أن كل سلوكات و إنفعالات الإنسان كلها مرتبطة بالتجربة ، وهدفي أن أصل إلى المبادىء الأولى التي أسس بها هيوم فلسفته وكانت بمثابة معيار اختبار لجميع قضايا الفلسفة .

وفي الفصل الثالث تطرقت إلى تطبيقات هذا المبدأ الحسي على العلية من خلال مفهومه للعلية، ومن أين استسقاه، لأن "هيوم" بهذا يدافع عن المبادئ التجريبية ، وإثباته أن العلية لاتكشف بالعقل ، ثم خلصنا إلى جملة أو مجموعة من النتائج ، وكذلك تطرقنا إلى أهم الإنتقادات التي وجهت إلى "ديفيد هيوم" من بعض الفلاسفة وذلك في تصوره لمبدأ العلية .

ومن الأسباب التي دفعتني لإختيار هذا الموضوع هو حب الإطلاع على الفلسفة التجريبية ، وأردت التعرف على فلسفة "ديفيد هيوم" التجريبية أكثر ، وعلى نظريته للمعرفة ، ومن بين الأسباب كذلك هو معرفة الإنقلاب الفكري الذي أحدثه هيوم في مفهوم العلية خاصة عند العقليين .

والمنهج المتبع في هذه الدراسة ، والذي رأينا أنه مناسب له ا، هو المنهج التحليلي ،إذ حاولنا تحليل أفكار الفيلسوف التجريبي "ديفيد هيوم".

ومن أهم المصادر المعتمدة في بحثنا هذا كتب "هيوم" : "مبحث في الفاهمة البشرية"و " تحقيق في الذهن البشري " ، أما فيما يخص المراجع فلأهمها كتب "الفلسفة الحديثة"... ،أما فيما يتعلق بالصعوبات التي واجهتنا طيلة هذا البحث تكمن في وجود مصادر باللغات الأجنبية، وصعوبة ترجمتها بأسلوب الذي أراده الفيلسوف وعبر عنه ، لكن رغم كل هذا فقد ساعدنا المشرف من خلال توجيه النصائح وتذليل كثير من الصعوبات، فله كل الشكر والعرفان، أولاً لإشرافه على هذا العمل وعلى كل النصائح والتوجيهات التي قدمها لنا.

الفصل الأول

دفيد هيوم سيرته و مصادر فكره

الفصل الأول : دفيد هيوم سيرته و مصادر فكره:

إننا عندما نتكلم على المنهج التجريبي نتكلم على الفيلسوف الانجليزي " ديفيد هيوم " الذي يعد أحد أهم الفلاسفة التجريبيين في العصر الحديث، فقد شغف منذ صباه بالفلسفة ،وتقوم فلسفته على أن كل المعارف التي إكتسبها الإنسان قد إكتسبها عن طريق التجربة ، وبما في ذلك العقل ، بحيث نجده ينفي أي وجود للافكار الفطرية، وان كل شيء خاضع للتجربة ، فهو فيلسوف الطبيعة البشرية، لانه ركز على دراسة علم الانسان وهذا من خلال تقسيمه لمبادىء الطبيعة البشرية، ومحاولة فهمها وشرحها ، ولتعرف اكثر على مشروع "هيوم" الفلسفي يجب علينا دراسة فلسفته وتسليط الضوء عليها ، وعليه نطرح التساؤل التالي : من هو ديفيد هيوم ؟ وماهي اهم المصادر الفكرية له ؟

المبحث الاول : السيرة الذاتية لدفيد هيوم وآثاره :

من الضروري قبل مناقشة فلسفة هيوم أن نتحدث عنه ، ونعرف به أكثر للقراء، و ذلك من خلال طرحنا لسيرته و الظروف التي تعايش معها أنذاك ،و أهم أعماله و إنجازاته خلال مسيرته العلمية و العملية و التي سنتطرق لها كالتالي

1)- حياته :

ولد "دفيد هيوم" في 26اغسطس 1711، في مدينة ادنبرة بسكتلندا شمال بريطانيا لاب محامي . توفي وهو في الثالثة ورباه عمه جورج الذي كان راعي كنيسة متشدد ، وفي سنة 1722 التحق هيوم وهو في الحادية عشر بمدرسة ادنبرة التي اصبحت فيما بعد جامعة شهيرة ، ودرس فيها علم الفيزياء الذي كان يسمى انذاك بالفلسفة الطبيعية ، وتعرف فيها على نظرية نيوتن* ،وتلقى تعليماً راقياً في الاداب الكلاسيكية اللاتينية ،التي عرفته على اعمال المدارس اليونانية الابيقورية و الرواقية، و التي سوف تسهم في تشكيل فكره الفلسفي ، وفي قراءته تعرف هيوم على اعمال الفلاسفة المحدثين على راسهم بيكون ومالبرانس و بايل ، وقد ارادت اسرته ان يدرس القانون ليحترف مهنة ابيه ، لكن هيوم كان يكره هذا

*عالم انجليزي يعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضيات عبر العصور و أحد رموز الثورة العلمية . شغل منصب رئيس الجمعية الملكية وكان عضو في البرلمان الانجليزي . وترأس دار سك العملة الملكية . وزمالته لكلية الثالوث في كامبريدج وهو ثاني أستاذ لوكاسي للرياضيات في جامعة كامبريدج وألف كتاب الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية . وكان هذ أهم عمل فردي في العلوم الطبيعية (نظرية كل شيء –ستيفن هوكينغ – ت- يوسف البناي – ص 15)

اللون من الدراسة مما اوقعه في ازمة نفسية ،ونزاع مع أسرته [1]، فقد كان شغفه بالفلسفة واضحا منذ صباه ، فضحى في سبيلها بدراسة القانون ثم ضحى بالتجارة ، كان يطمح الى ان يقدم مذهب يضارع العلوم الطبيعية دقة و احكاما بفضل تطبيق منهج الاستدلال التجريبي ، يقال انه فرغ من تحديد موقفه الفلسفي الاساسي في بواكر حياته ، اذ نشر أول كتاب له وأفضل مبحث لارائه في سن 27 فيه 600 صفحة ، إلا انه وبعد تعرضه لبعض الامراض التي اثرت عليه كثيراً مابين عام (1729-1734م) ترك الفلسفة الى حين [2]، و غادر الى فرنسا وبقى فيها حتى 1777م ، وانتهى به المطاف في « لافليش » فرنسا بمدينة التي أذاع شهرتها أن ديكارت كان قد تلقَّى فيها علومه بكلية الجزويت، وقد كان خليقًا بهيوم أن يذكر هذه الحقيقة في حياته، لكنه لم يفعل، كأنما مقامه في بلد أنشأ ديكارت من قبله ليس من الحوادث التي تستوقف النظر؛ فما الذي أغراه يقيم فيها ليكتب رسالته الرئيسية؟ لعله هدوء المكان أو « لافليش » إذن باختيارعيشه الرخيص، أو لعلها كلية الجزويت هناك وما فيها من مُعِينات على القراءة والد راسة، ففي أبهاء ذلك المعهد الهادئ كان فيلسوفنا الشاب يتمشى يومًا مع أحد القساوسة يتبادلان الحديث في « المعجزات » ، فكان هذا الحديث بداية تفكيره الذي إنتهى فيما بعد إلى مقالته المشهورة في هذا الموضوع.

يقول هيوم في خطاب أرسله إلى صديق إنه أثناء مقامه في فرنسا، في « ريمس » أولًا ، وفي « لافليش » ثانيًا فرغ من كتابه « رسالة في الطبيعة البشرية » ، ثم يصف هذه « الرسالة »، بأنها مشروع ضخم "وضعتُ خطته قبل أن أبلغ الحادية والعشرين، وأنشأته قبل أن أتمَّ الخامسة والعشرين".

أما وقد أتم هيوم « رسالته »،فلم يعد هنالك ما يدعوه إلى إطالة الإقامة في «لافليش» ، ولهذا غادرها مقيمًا في فرنسا نحو العامين قضاهما هنا وهناك، ثم عاد إلى لندن في سبتمبر[3]من عام 1737 م،حيث أصدر جزءان لمؤلفه " الرسالة" في 1739م فلم يلقى أي نجاح ، و في 1740م اصدر موجز الرسالة في الطبيعة البشرية ، وكان شديد الندم على

[1] د . عبد الرحمان بدوي – موسوعة الفلسفة ج2 – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ط1 – 1984 – ص612-613.

[2] د- يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة – دار المعارف – القاهرة – ط5 – ص 172 .

[3] زكي نجيب محمود- دفيد هيوم – مؤسسة الهنداوي- 2021 - ص 14.

تسرعه في النشر؛ لأنه رغم هذا الحرص وهذه العناية، فقد صدرت « الرسالة » وفيها كثير جدًّا من فجاجة الشباب... وسذاجته ، يقول في ذلك «. لقد عاودني الندم مئات المرات ومئاتها على تسرعي بالنشر » قال ذلك في إحدى رسائله، وفي رسالة أخرى يقول إنه نادم على نشر « الرسالة » إطلاقًا فلم يعد موضع الندم منصبًّا على مجرد التسرع، وأن التمهُّل كان أَولى، بل إنه ود فيما بعد لو لم ينشر هذا المؤلَّف قط؛ وهو يعلل إقدامه على النشر تارة بأنه خشي أن يسبقه سابق إلى نشرأفكار شبيهة بأفكاره، وكان يريد لنفسه أن يكون المعلن الأول لهذا الطريق الفلسفي الجديد، وتارة أخرى بأنه خجل أن يظهر أمام أهله وأصدقائه بمظهر من أضاع وقته سدًى، فلا أقلَّ من تبرير غيابه وانقطاعه عن العمل بكتاب يقدمه لهم حجةً على أن وقته لم يضع هباءً. ومهما يكن من أمر، فقد اشتد به القلق على قيمة عمله؛ إذ هو في انتظار نشره فلم يدخر وسعًا في تعديله هنا وتحويره هناك، وحذْفٍ هنا وإضافة هناك؛ وكلما اقترب وقت الصدور اشتد به الهلع حتى وصف نفسه بالجبن، كأنما هو لا يقوى على مواجهة الناس برسالته؛ ولكنه مضى في إصلاح عمله مسرعًا قبل أن تتناوله المطبعة، قائلًا لنفسه إنه لا ينبغي أن يأخذه الزهو بعمله بحيث يتركه معيبًا، فلئن كان يزدري مثل هذا الطيش في الآخرين فما أحراه أن يزدريه في نفسه؛ وكتب في خطاب لصديق عندئذٍ يعبر عن خواطره ،هذه ترفعه آنًا فوق السحاب زهوًا وشموخًا، لكنها آنًا آخر تقبضه من « رسالته » فقال إن الخناق وتملؤه بالشكوك والمخاوف. وحفزه الحرص والخوف معًا، أن يستطلع رأي الأخلاقي المعروف في تاريخ الفكر الإنجليزي ، فاعجبْ لهذا الثائر على الفلسفة الدينية والأخلاقية الشائعة في عصره يستشير قسيسًا أخلاقيًّا في قيمة مبادئه! لكنه فعل، وأعجب من ذلك أنه لم يتردد في تغيير ما اقتنع بأنه واجب التغيير.

وأخيرًا صدرت « الرسالة في الطبيعة البشرية » لا تحمل اسم صاحبها ، ولا أي اسم آخر من أسماء العظماء الذين اعتاد المؤلفون أن يستندوا إليهم؛ فقد أراد هذا الفيلسوف الشاب الذي لم يكن قد جاوز الثامنة والعشرين عندما نشر في الناس مؤلَّفه العظيم، أراد أن يواجه القارئ بكتابه مواجهة مباشرة فيرفعه أو يخفضه تبعًا لما يراه في ذاته من قيمة كبيرة أو صغيرة، دون أن يتأثر بهذا الاسم أو ذاك ... تُرى هل كان هذا التخفي جبنًا أم شجاعة؟ هل جفل الفيلسوف المتردد من مواجهة القراء بشخصه أم أنها شجاعة منه أن يقذف بفلسفته في

وجه القرَّاء غير مستندة إلى ناصرأو شفيع؟ ، وعلى أي حال فقد "ولِدت الرسالة ميتة من المطبعة، لم تستثر حتى ولا الهمس بين من يتحمَّسون" على حد ما قاله هيوم نفسه عنها؛ مع أنه كان يعلِّق عليها آمالًا كبارًا. ... لكن الكتاب لم يلقَ رواجًا عند صدور جزأيه الأوَّلَين [1]، وفي 1741م اصدر مباحث اخلاقية و سياسية فأحرز نجاحا ملحوظا ، وفي 1744م تقدم لشغل كرسي الفلسفة في جامعة أدنبرة فرفض طلبه [2]، عندئذ دعاه كبار الشخصيات في انجلترا ليكون مدرسا خاصا لأنجالهم، فقبل هذه الوظيفة لمدة ثلاث سنوات اشتغل بعدها في سلك الدبلوماسيين في فرنسا مما اتاح له فرصته لإدخار مال وفير ، فاعتزل الخدمة في الوظائف العمومية وتفرغ للكتابة [3] ، و مابين السنتين (1746-1748م) صار سكرتيراً خاصاً ل "سانت كيلر" وكان من اقاربه الاباعد ، و صحبه في مهمة دبلوماسية الى فينا وتورينو (ايطاليا) ، و في اثناء هذه الرحلة طبع لهيوم كتابه (مقالات فلسفية في العقل الانساني) ، وقد عدل عنوانه فيما بعد الى الفحص عن العقل الانساني ، وفيه أعاد عرض مادة الكتابين الاول و الثاني من " بحث في الطبيعة البشرية " ، لكن بأسلوب واضح ولامع وعرض مشوق ، وفي هذه المرة نشر الفصل الخاص بالمعجزات والفصل الخاص بالعناية الجزئية، وهما فصلان اللذان تحرز من نشرها في الطبعة الاولى ، ولما عاد من رحلته نشر الكتاب الثالث في صورة جديدة مشوقة ومعه " الفحص عن مبادىء الأخلاق " و صدرت النشرة سنة 1751م .

(1751-1752) تقدم مرة للحصول على كرسي الفلسفة في جامعة جلاسكو ، فأخفق في الظفر بها هذه المرة ايضا، لكنه عين محافظا لمكتبة " كلية المحامين " كلية الحقوق في جامعة أدنبرة ، وفي هذه المكتبة وجد كل المراجع و الوثائق التي يحتاج اليها في كتابه " انجلترا " .

---

[1] زكي نجيب محمود – دفيد هيوم – مرجع سابق – ص 14.

[2] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية –ت.د – موسى هبة – دار الفارابي – بيروت – لبنان – ط1 -2008 – ص 9.

[3] د- ايوب ابو دية – العلم والفلسفة الاوروبية الحديثة من كوبرنيق الى هيوم – دار الفارابي – بيروت لبنان – ط1 – 2009 – ص 322-323 .[3]

(1754-1761) المدة التي استغرقها هيوم في كتابه " تاريخ انجلترا " يبدأ من غزو يوليوس قيصر لانجلترا (سنة 55 ق.م) حتى جيمس الثاني سنة (1430-1460) ،ولكنه رتبه في الكتابة مبتدئا بأخره و صاعدا حتى اوله ، و يقع في ست مجلدات ، ثم أصدر بعدها اربعة ابحاث منها " بحث عن التاريخ الطبيعي للدين " و بحث عن الانتحار ، لكنه ما لبث أن سحب هذا البحث الاخير [1].

(1763-1766) رافق السفير هيرتفورد إلى فرنسا ، فاستقبل فيها أحسن إستقبال ، و صار نجم صالوناتها الادبية ، حيث نشأت صداقات له مع "الفلاسفة الأنوار" [2] ، وهنا عرف هيوم أوج مجده و شهرته، ثم اصبح قائما بأعمال السفارة الانجليزية بعد استدعاء السفير الى غاية وصول السفير الجديد ، عاد على اثرها الى انجلترا ، بعد الاستقالة من هذه الوظيفة واخلد إلى الراحة و الدعة ، و هنا حدث له حادث مع " جون جاك روسو " * ذلك أن الكونتيسة بوفلوز - حامية هيوم- كانت قد أوصت هذا الأخير بقراءة روسو ، و كتبت إليه أن يساعد " روسو " على الاقامة في انجلترا ، بعد نفيه من جنيف ، وصار ممنوعا عليه الاقامة في فرنسا أيضا ، فاستجاب هيوم لطلبها واصطحب روسو معه في يوم 4 يناير 1766 ، فوصلا إلى لندن في يوم 13 يناير ، فبقي في لندن الى حين وصول خادمته ورفيقة فراشه " تيريز لوفايسر "، فرحلا من لندن في 19 مارس 1766 ، حيث كان يوجد منزل ريفي لاحد اصدقاء هيوم في مقاطعة دربيشير ، لكن لم تمضي ثلاثة أشهر لروسو في هذا البيت الريفي حتى شب نزاع بينه وبين صديقه هيوم . ربما كان السبب فيه مزاج روسو السوداوي القلب ونفسه الجافلة بوساوس الاضطهاد له و المطاردة .

وقد بدأت هواجس روسو ضد هيوم تنفث سمومها في نفسه منذ السفرة من باريس الى لندن . فقد نزل هيوم وروسو وصديق ثالث يدعى لوز وهو رجل أعمال سويسري كان في

---

[1] د. عبد الرحمان بدوي –موسوعة الفلسفة –ج2 – مرجع سابق – ص613.

[2] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – ت.د- موسى هبة – مصدر سابق – ص 10

*كاتب و أديب و فيلسوف وعالم نبات جنيفي ، يعد من أهم كتاب عصر التنوير ، وهي الفترة من التاريخ الاوروبي امتدت من أواخر القرن السابع عشر الى اواخر القرن الثامن عشر الميلاديين . ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية ، التي أدت الى قيام الثورة الفرنسية . حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب و السياسة يعتبر كتابه العقد الاجتماعي حجر الزاوية في الفكر السياسي والاجتماعي الحديث (أنظر تاريخ أوروبا في العصر الحديث – هربت فيشر – دار المعارف – القاهرة – 1956-ص321).

طريقه إلى لندن – نزل الثلاثة في فندق بمدينة سنليس ، الواقعة على مسافة 50 كيلومترا الى الشمال من باريس ، ونام ثلاثتهم في غرفة واحدة على ثلاثة اسرة . ونام هيوم ولوز بينما لم يستطع روسو النوم ، واذا به يسمع هيوم يقول بصوت عال – وهو نائم يحلم "اني قابض على جان جاك روسو " ، فأوجس روسو من هذه العبارة وتوهم ان هيوم يعني أن روسو قد صار اسيرا بين يديه ، فيا لفرحة أصدقائه الملحدين من رجال الانسكلوبيديا وهم أعداء روسو الألداء . وكأن روسو توهم إذن أن هيوم مشترك في مؤامرة دبرها هو وأصدقاءه من رجال الانسكلوبيديا لاهانته واضطهاده ، وأنه لم يساعده في السفر إلى انجلترا من باب الصداقة ، و الشهامة والنجدة بل لمزيد من التنكيل !

وتسلطت هذه الفكرة في ذهنه طوال اقامته في لندن وفي ذلك البيت الريفي ، مما ولد نزاعه مع هيوم الذي أنجده !، لهذا كان روسو يشك في كل بادرة من بوادر الصداقة والمساعدة يبديها هيوم . من أن هيوم يتولى إحضار بريد روسو إليه من مكتب البريد ، وكان ذلك فيما شك روسو يسبب تأخير وصول بريده إليه ، لكن حجة هيوم هي أنه إنما كان يفعل ذلك لأن روسو كان دائما يدعي أنه مفلس ، لهذا كان يتولى هيوم سحب بريد روسو من مكتب البريد ودفع ثمن البريد حتى لا يضطر روسو الى دفع هذا الثمن ، ومن ذلك أيضا ان روسو قد ترك بعض اوراقه الخاصة في فرنسا و أراد الحصول عليها ،فكلف هيوم أحد اصدقائه وهو هوراس والبول بهذه المهمة ، مع أن والبول كان عدوا لروسو وسخر منه بأن نشر رسالة مزورة ، زعم أنها دعوة من فردريك الأكبر ملك بروسيا يدعو روسو الى حضور الى بلاطه لينال من نعمه أو من " اضطهاده " ،لأنه علم أن روسو يفضل الاضطهاد على نيل النعم !

ومهما يكن من أمرهذه الاتهامات، فلا شك أن هيوم أساء إلى ضيفه روسو لما نشر عرض موجز لخلافه مع روسو ، مما زود اعداء روسو – وما أكثرهم من الأدباء و المفكرين في ذلك الوقت – بمادة سمينة للتهكم عليه ، و السخرية منه، وقد إعترف هيوم فيها بعد بأنه أخطأ في تصرفه هذا ، لكنه برره بأنه خشي أن يصور روسو في " اعترافاته " هذا الحادث تصويرا شائنا لهيوم . وعلى كل حال فان روسو لم يفعل ذلك لسبب بسيط ،

وهو أن " اعترافاته " لم تصل الى احداث 1766 ، وان كان روسو قد توفي في سنة 1778.[1]

(1767-1768)عمل مساعد سكرتير الدولة للشؤون الشمالية و الداخلية ، الجنرال كونويي [2]

لم يكن قد بقي ل « ديفيد هيوم » إلا فترة قصيرة قبل ختام حياته، حين كتب "حياتي" وكان آخر ما كتب؛ لكنه أوجز كأنما أراد أن يقص للناس عن نفسه دون أن يكشف لهم عن نفسه! وكم كنَّا نود أن يكتب عن نشأته فيطيل ويُسهب، ليروي لنا عن المؤثرات التي عملت في نفسه، بحيث أخرج كتابه الرئيسي الذي يحتوي على لباب فلسفته كلها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره، بل إن الفكرة قد اختمرت كلها في عقله كما يقول وهو لم يزل طالبًا لم يبلغ العشرين ... إننا قد نفهم أمثال هذا الإنتاج المبكر في عالم الفن مثلًا أو في الرياضة، فلسنا نعجب لفنان أو لعالم رياضي يكتمل نتاجه في سن مبكرة؛ لأن الموهبة المطلوبة للعبقرية الفنية أو الرياضية هي لمعات من الإلهام ،أو لمحات من الذكاء قد يُوهَبها صاحب السن الصغيرة؛ أما الفلسفة فالأرجح ألا تتكامل لصاحبها إلا بعد أمد يطول بعض الشيء، لكي تتهيأ له فرصة التأمل الطويل ،والدراسة المتشعبة والمقارنات الكثيرة والخبرة الواسعة ... لكن ها هو ذا فيلسوفنا هيوم ينتج فلسفته المبتكرة التي غيَّرت مجرى الفكر من بعده، ينتجها في سن العشرين أو نحوها، دون أن يحدثنا عن العوامل التي فعلت في ذلك فعلها.[3]

[1] د – عبد الرحمان بدوي –موسوعة الفلسفة –ج2- مرجع سابق – ص 614.
[2] دفيد هيوم –رسالة في الطبيعة الانسانية – ت.د-وائل علي سعيد – دار الفارابي – بيروت – لبنان – ط1- 2008- ص10.
[3] زكي نجيب محمود – دفيد هيوم – مؤسسة هنداوي 2021 – ص 11.

وفي سنة 1769 م ، عاد هيوم الى مسقط رأسه ، مدينة أدنبرة حاضرة اسكتلندة و "أثينا الشمال " كما كانت تسمى انذاك ، ليقضي البقية الباقية من عمره فيها بين اصدقائه مثل أدم سميث الاقتصادي العظيم ، ولورد كيمز رجل القانون والتشريع ، وبين خصومه الذين كانوا مع ذلك يحترمونه ويجلونه مثل جورج كامبل اللاهوتي الذي كتب نقدا عادلا لبحث هيوم عن المعجزات ، وأمضى وقته في مراجعة مؤلفاته توطئة لاعادة نشرها منقحة مصححة .

ثم اصيب بقرحة في المعدة شديدة أيقن بعدها بقرب الموت ، فكتب وصيته . وتوفي دفيد هيوم في عصر يوم الأحد الخامس و العشرين من شهر أغسطس سنة 1776[1].

2)- مؤلفاته :

أفنى ديفيد هيوم سنين عمره في محراب الفكر ، وقد اثمرت هذه السنين الطويلة عن عدة مؤلفات هامة تركها لنا هيوم كان لها عظيم الاثر خاصة بعد وفاته لدى الكثير من المفكرين [2]، يقال ان فرغ من تحديد موقفه الفلسفي الاساسي في بواكر حياته فأشبه باركلي في التفكير العقلي [3].

يعتبر كتابه الفلسفي الذي عنونه ب " رسالة في الطبيعة البشرية " أهم كتبه الرئيسية حيث كتبه بينما كان يعيش في فرنسا إبان السنوات من 1734 الى 1737 م ، وقد كان شابا يافعا لم يتم الثلاثين من عمره ولم يكن مشهورا ، بحيث كانت نتائجه لا تجد ترحيبا عند كل المدرسين تقريبا [4]، إذ ولد هذا المؤلف ميتا على حد تعبيره. والسبب في ذلك يعزوه "هيوم" إلى الأسلوب الجاف وعرضه وليس الى مادته .والهدف الذي أراده "هيوم" هو تجاوز عيوب الفلسفات السابقة التي لم تتأسس على التجربة ،وذلك بوضع أسس تجريبية لعلم الإنسان، أو علم الطبيعة البشرية ، وهذا الكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام: كتاب الفهم، كتاب الانفعالات، كتاب الأخلاق.

[1] د- عبد الرحمان بدوي – مرجع سابق – ص 614.
[2] د- ابراهيم مصطفى ابراهيم – الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم – دار الوفاء للطباعة و النشر – الاسكندرية – 2001 – ص323.
[3] يوسف كرم –تاريخ الفلسفة الحديثة – مرجع سابق – ص172
[4] برتراند راسل – تاريخ الفلسفة الغربية – ت.د- محمد فتحي الشطي – الدار المصرية العامة للكتابة – ص252.

ثم نشر ملخصا لها في عام 1740م ، كما نشر كتابه " تاريخ انجلترا" في ستة أجزاء و حاز على شهرة واسعة نتيجة لذلك ، وبعدها نشر كتاب أخر بعنوان " بحث في الفهم البشري " عام 1748 م، الذي شرح فيه نظريته في المعرفة [1] ، ثم أردفه بكتاب في " المبادىء الأخلاقية " سنة 1751م ، والجدير بالذكر أنه لم يكتفي بالكتب فقط ، بل اعتمد على المقالات أيضا من خلال كتابته مقالات أخلاقية وسياسية سنة 1745 م ، كما استمر في تأليف الكتب المتعلقة بالدين من خلال كتاب تاريخ الطبيعي للدين سنة 1756م-1761م وأيضا كتابه " محاورات في الدين الطبيعي الذي نشر بعد وفاته ، كما عالج هيوم أيضا السياسة من خلال كتاب " أحاديث سياسية " سنة 1756 ، وكذلك خطاباته والتي نشرت أيضا بعد وفاته ،وختم مؤلفاته بكتابه الذي عنونه ب " حياتي " الذي كتبه قبل وفاته و لكن نشر بعد وفاته [2].

المبحث الثاني : المصادر الفكرية لدفيد هيوم :

يعتبر "دفيد هيوم" أهم فلاسفة العصر الحديث ، و أحد أهم أقطاب المدرسة التجريبية الانجليزية، لأنه وصل بفلسفة لوك و باركلي إلى نتيجتها وهي الشك ، ففي اتجاهه من المستحيل المضي و الوصول الى أبعد ما وصل إليه ،حيث نرى أن الفيلسوف "ديفيد هيوم" قد استلهم أفكاره الفلسفية من كل من" جون لوك " و "جورج باركلي "، ويتجلى تأثره بهم جلياً و واضحاً خاصة في بداية حياته و نعومة أظافره ، ففي هذه المرحلة من حياته كان شديد التأثر بهم : فيا ترى ماهي أهم المحطات التي تأثر فيها الفيلسوف ديفيد هيوم بكل من جون لوك و جورج باركلي ؟

1)-جون لوك * (1792-1804) : يعتبر أحد أكبر ممثلي النزعة التجريبية الانجليزية، جاء بعد فرانسيس بيكون، وكان أعمق منه في توضيع المذهب الحسي و الدفاع عنه ، فاستحق

[1] أيوب أبو دية – العلم والفلسفة الاوروبية الحديثة من كوبرنيق الى هيو – مرجع سابق –ص 228

[2] ابراهم مصطفى ابراهيم – الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم – مرجع سابق –ص326

*فيلسوف انجليزي و اقتصادي وكاتب سياسي متأثر بديكارت وغاسندي من مؤلفاته "رسالة في التسامح " ومؤلفهالرئيسي مقال في الفهم الانساني –والذي يشرح فيه لوك نظريته في المعرفة التي تسمى التجريبية المادية والتي تقوم على أن العالم الخارجي الموجود موضوعيا هو مصدر المعرفة وقد رفض المذهب الديكارتي في الافكار الفطرية وأعلن عن أن الخبرة هي المصدر الوحيد لكل الافكار (كميل الحاج – الموسوعة الالميسرة في الفكر الفلسفي و الاجتماعي – مكتبة لبنان ناشرون - بيروت ط1 2000-ص499).

أن يدعى زعيمه في العصر الحديث ،و قد يتضح تأثر هيوم بلوك في الكثير من المحطات ، بداية بأن كل أفكارنا صادرة عن التجربة و أنه ليس لدينا أفكار فطرية ،ولم يعد هناك دور مهم للعقل سوى التذكر و اعادة تكوين الصور الحسية [1] ، وهذا ما أكده هيوم و انطلق منه في تأسيس فلسفته، اذ نجد لوك أكد في أهم مؤلفاته وهو" مقالة في العقل البشري "، خاصة في البابين الأول و الثاني على أن العقل البشري عاجز و محدود ، لما حاول اخضاع العقل لإختبار لمعرفة حدود قدرته على اكتساب المعرفة الصحيحة، فوجد أنه قاصر و محدود فيقول : " لا ينبغي ان نغدو حدود ما تستطيعه ملكتنا " [2] .

كما أن هيوم قد تأثر أيضا بلوك في فكرة الأثار الحسية والأفكار التي أكدها هيوم وفصل فيها ، وهذه الفكرة مفادها أن العناصر التي تتألف منها معرفتنا كلها هي المدركات البسيطة التي تتلقاها عقولنا وتشتغل بها دون أن يكون لهذه العقول أي أثر فيها [3] ، إذ يتفق هيوم هنا مع لوك وينفي أي دور للعقل و يأكد على أنه لا وجود لأي أفكار فطرية عقلية في العقل، بل الموجود هو التجربة وما تتركه من أثر على العقل فهو مجرد مستقبل لما تمليه الحواس عليه ، فهو عاجر و قاصر عن بلوغ الحقيقة من دون هذه الرسائل الحسية القادمة من الحواس الخمسة ، فالحقيقة يتم الوصول اليها من خلال المبدأ الحسي الخالي من كل اضافة حسية حسب هيوم .

كما أننا نلاحظ التأثر الكبير لهيوم بلوك في مؤلفاته ، حيث نجد أن أول كتاب لديفيد هيوم كان بعنوان " مقالة في الفهم البشري " وهو العنوان الذي اقتبسه من عند جون لوك وكتابه " مقالة في العقل البشري " ، ولا يبرز أي تأثر هيوم بلوك في عنوان الكتاب فقط بل حتى في محتوى الكتاب، خاصة فيما يتعلق بنظرية المعرفة لكل منهما ونقدهما للأفكار الفطرية الموجودة في العقل التي دعا اليها العقليون ، بالاضافة الى تأكيدها على أن المصدر الوحيد للمعرفة والحقيقة هو التجربة وكل ما في هذا العالم خاضع للتجربة بما في ذلك العقل نفسه.

[1] ايوب ابو دية – العلم والفلسفة الاوربية – مرجع سابق –ص231-232 .
[2] زكي نجيب محمود – قصة الفلسفة الحديثة – لجنة التأليف و النشر – 1936- ص204.
[3] المرجع السابق – ص 234

2)- جورج باركلي * : (1685-1753) : يعتبر باركلي رمز من رموز المدرسة التجريبية الانجليزية، كما يعتبر شخصية انتقالية مكونة توسط المرحلة التي تميزت بسيادة العقل مع ديكارت، وبين المرحلة التي شهدت ولوج الاتجاه الحسي ابتداء مع لوك و انتقالا الى هيوم ، عرف بتبكيره العقلي حيث إنتهى من تحديد موقفه الفلسفي عندما كان مازال يافعا [1] ، وهذه هي ربما من أهم النقاط التي تشابه فيها هيوم ببباركلي ومنه نطرح التساؤل التالي : إذا كان هيوم تأثر بلوك في الجانب المعرفي في أصل الأفكار ، فأين تجلى تأثير جورج باركلي في دفيد هيوم ؟

إن أهم النقاط التي تأكد على التأثير الواضح لباركلي في هيوم، تتجلى في أن هيوم قد وصل بفلسفة باركلي إلى نتيجتها المنطقية والتي هي الشك ، فالشك هو الخاتمة التي إنتهى إليها المذهب التجريبي ، الذي قام في انجلترا والذي غدى موقفا محيرا في ظل اكتشافات ذلك العصر العلمي ، من خلال التوصل إلى قوانين الطبيعية الضرورية التي جعلت العالم يخضع لقوانين علمية ضرورية في المادة والحركة كقوانين غاليلو ،و نيوتن و غيرهما [2] ، حيث يعتبر هيوم بحق فيلسوف الشك بحق فهو أكثر الفلاسفة التجريبين شكا على الاطلاق .

حيث يسلم هيوم بما قاله باركلي : " أن الأشياء المادية الخارجية ، مادامت صفاتها من خلق عقولنا فهي مجرد وهم و خرافة "، وهنا يظهر تأثر هيوم ببباركلي حيث وافقه في إنكار العالم المادي ، الا أنه زاد عليه بأن العقل أيضا غير موجود فهو مجرد وهم ، فلا مادة هناك ولا عقل ، و الموجود الوحيد هو التجربة كمصدر وحيد للعالم ، فطالما أن أفكارنا مصدرها التجربة فلا مادة هناك لأن صفاتها من خلق عقولنا ، ولا عقل هناك كذلك

*فيلسوف أرلندي من أسرة انجليزية كان أستاذ للغة اليونانية و العبرية وهلم اللاهوت من مؤلفاته " رسالة في مبادىء المعرفة البشرية " أقام نظاما فلسفيا في سن مبكر انطلق من مقدمة تقول " ان الانسان لا يدرك شيئا بطريقة مباشرة سوى أفكاره " فقد استنتج أن الأشياء لا توجد الا في المدى الذي تكون فيه أن تدرك ، ومن هنا أطلق مقولته الشهيرة " وجود الشيء ادراكه " (كميل الحاج – الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي و الاجتماعي – ص102).

[1] ريتشارد شاخت – رواد الفلسفة الحديثة – ت.د- أحمد محمود – مكتبة الأسرة – برعاية سوزان مبارك – ص265-266.

[2] ايوب ابو دية – العلم و الفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم -مرجع سابق – ص229 .

لأن العقل كذلك لا يفرق سوى بين مجموعة من الإدراكات الحسية المترابطة بقوة الخيال فقط [1] ، ومن هذه الفكرة نصل إلى تأثر آخر لهيوم بباركلي، ألا وهي فكرة " التصورية " فمذهب هيوم يرجع الى نقطتين رئيسيتيين ألا وهما : الحسية التصورية كمذهب باركلي ، إذ يأكد هيوم على أن الشيء لا يحفز في الذهن الا أن يكون صورة أو ادراكا، وبطبيعة الحال على ما يقضي به المبدأ التصوري ، وفي هذه العبارة إشارة و تأكيد صريح على عدم اعتراف هيوم بكل ماهو مادي مثله مثل باركلي، إلا أنه أكثر دقة وتطبيقا للمبدأين الحسي و التصوري ، و أكثر جرأة في مواجهة النتائج الشكية حتى أعلن الشك صراحة [2] .

كما أن هيوم لا يعترف بتاتا بالمعاني المجردة ويرفضها رفضا قاطعا و يصطنع الإسمية مثل باركلي، فيتحدث نفس حديثه ويسوق نفس الأمثلة ، فلا قيمة لما بعد الطبيعة ولا قيمة لما تلتقطه الحواس ، فلا يوجد في الذهن معان مجردة و جميع معارفنا جزئية وكل ما هنالك أن إسما بعينه ينطبق على جزئيات عدة ،وهنا يعطينا هيوم مثالا فيقول : " إسم فرس يطلق عادة على أفراد مختلفة اللون و الشكل و المقدار، فبمناسبته تتذكر هذه المعاني أو الأفراد بسهولة " [3] ، فهيوم بهذا المثال أراد أن يؤكد على أن معانينا الكلية جميعا هي في الحقيقة معان جزئية مرتبطة بإسم كلي يذكر اتفاقا بمعان أخرى جزئية في الذهن وفقط ، فكل المعاني ترتبط بإسم كلي يمكن من خلاله إدراكها وتصنيفها ، ومن خلال هذا الإسم الكلي أيضاً يمكن الشعور بهذه المعاني فتنقشع بذلك صفة التجريد عن هذه الأسماء ،وتصبح أعراض حسية قابلة للادراك بعيداً عن كل تجريب نسبي غير معين .

نستنتج من خلال ماسبق عرضه التأثير الكبير لجون لوك و جورج باركلي في فكر ديفيد هيوم، خاصة في البدايات الأولى لفلسفته ، بل يمكن إعتبار فلسفة وأفكار كل من جون لوك وجورج باركلي بمثابة القاعة الصلبة التي إنطلق منها الفيلسوف التجريبي " ديفيد هيوم " في بناء فكره الفلسفي التجريبي .

---

[1] أيوب ابو دية – المرجع نفسه – ص233.
[2] يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة – مرجع سابق – ص173.
[3] يوسف كرم – المرجع نفسه – ص174

الفصل الثاني
مبدأ هيوم الحسي
الفكرة و الإنطباع

الفصل الثاني: مبدأ هيوم الحسي الفكرة و الإنطباع :

يعتبر ديفيد هيوم أهم أقطاب النزعة الحسية في العصر الحديث ، حيث يرى أن الفلسفة التجريبية جاءت على نقيض ماكان مسلما به في الفكر الغربي عموما ، حيث اعتبر أن التجربة هي المصدر الأساسي لكل و أفكارنا ،و وضع أساس علمي نستطيع بواسطته تجاوز كل ماهو غير ملائم و غير تجريبي، و طرح هيوم عدة مسائل فلسفية من بينها مشكلة المعرفة التي طرحها في كتابه " رسالة في الطبيعة البشرية "، لكن هذا الكتاب لم يتلقى ترحيبا في ذلك الوقت، وقد قال عنه ديفيد هيوم " أن كتابي هذا ولدته المطبعة ميتا " ،وبهذا أعاد كتابة بعض أجزاء لهذا الكتاب لكن بشكل مبسط تحت عنوان " بحث في الفهم البشري " ، بحيث يرى أنه من العبث أن نحاول فهم الطبيعة البشرية بعيدا عن الخبرات ، و للإحاطة بالموقف الفلسفي الهيومي لابد أن يكون من خلال التغلغل في محاولاته التحليلية العميقة التي مست التجربة الإنسانية بأكملها ، وعند التعمق في الجانب السيكولوجي المعرفي الذي كشف من خلاله على أصل البنية الفكرية للإنسان : فهنا نتساؤل عن أصل معارفنا أو أصل أفكارنا عند ديفيد هيوم ؟

المبحث الأول : مفهوم الادراكات و مضمونها الفكرة والانطباع:

اعتنق دفيد هيوم الاتجاه التجريبي الذي يرد كل معارفنا الى التجربة ، مما جعله يعتقد بأنه لا توجد معرفة يقينية [1] ، وللبحث في مشاكل المعرفة لجأ هيوم الى دراسة تحليلية سيكولوجية ، للوصول الى العناصر التي تنحل إليها معارفنا وتجاربنا [2]، حيث قسم كل إدراكات الذهن إلى صنفين، ألا وهما الأفكار و الإنطباعات ، حيث يقول " ديفيد هيوم " يمكننا أن نقسم ادراكات ذهننا إلى صنفين أو نوعين متمايزان بإختلاف درجة القوة والحدة في كل منهما ، فأما اقلهما قوة وحيوية فتسمى خواطر (Thoughts) أو أفكار ، أما النوع الأخر من الإدراكات ...فيجو ز لأنفسنا بعض الحرية لتسميتها إنطباعات (Impressions)... أعني إذن بلفظ إنطباع جميع إدراكاتنا الأكثر حياة ،إذ نسمع ، أو

[1] ابراهيم مصطفى ابراهيم – تاريخ الفلسفة الحديثة – مرجع سابق – ص326 .
[2] عثمان أمين – شخصيات و مذاهب فلسفية – دار جياء للكتب العربية – عيسى البابي الجلي و شركاءه – 1945- ص122.

نبصر ،أو نحس ،أو نحب، أو نكره ، أو نشتهي أو نريد [1]،أي أن الإنطباع مرتبط بكل ما يشعر به الإنسان من عواطف و غيرها ، أما الأفكار " فما هي إلا نسخ عن إنطباعاتنا " ، أي أن الأفكار هي مجرد إنعكاسات باهتة للإحساسات على مرآة أفكارنا ، ولهذا فإن الانطباعات أقوى من الأفكار و أشد تأثيرًا و حيوية ، و بإستخدام الذاكرة و الخيال نحن نرتب أفكارنا [2]، وإذا أردنا توضيح ما أراده هيوم بهذه الكلمات السابقة فعلينا أن نلقي الضوء عليها فيما يلي:

أ)- الأثار الحسية : هي الظواهر الوجدانية البارزة أي الإحساسات و الإنفعالات والعواطف واللذة والألم ، وإنفعالات التفكير التي تحدث كنتيجة للذة و الألم ،كالميل والنفور ، الرجاء و الخوف.

ب)- الأفكار : وهي صور حسية ونسخ باهتة منها ،وليس لها قيمة طالما أنها ليست وليدة الأثر الحسي أو مجموعها ، فإذا تركبت الأفكار البسيطة ، فالفكرة البسيطة هي صورة للأثر الحسي مثل عالم الأشباح الذي هو صورة لعالم معقول ، ويكتسب العقل معارف ه عن طريق الأثر الحسي، فإذا حدث خطأ ما بالفعل فعليه أن يعود إلى هذا الأثر الحسي لمعرفة سبب الخطأ [3]،ويصنف هيوم بنود الخبرة التي يسميها " الإدراكات " على النحو الأتي :

[1]دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق –ص40

[2]. عبد الرحمان بدوي – موسوعة الفلسفة ج2 – مرجع سابق – ص 614.

[3]إبراهيم مصطفى إبراهيم – تاريخ الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم – مرجع سابق – ص327

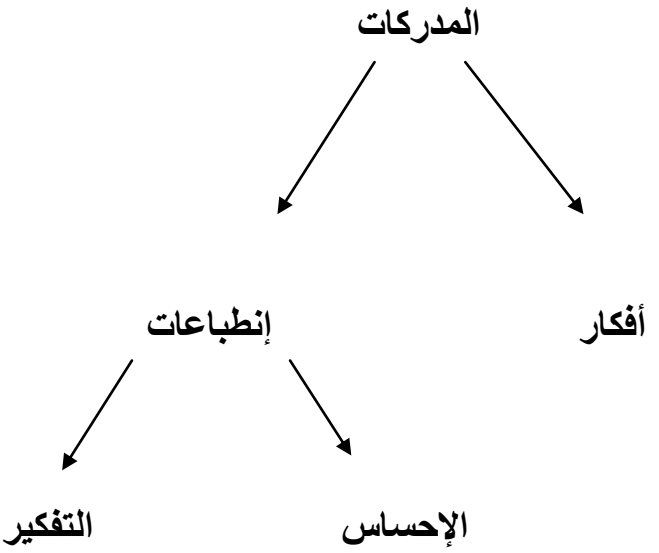

(اللون و الرئحة والملمس و اللذة والالم) (الإنفعالات و الرغبات و العواطف)

والإحساس عند هيوم هو عنصر غير قابل للتحليل ، كما أنه يمكن أن يوصف بأنه ذهني أو عقلي من بعض الوجوه ، ولكنه لا يوصف بإعتباره عنصراً طبيعياً [1].

والإنطباع لا يعني الحالة التي تكون عليها النفس حين تحصل على الإدراكات ، بل هو الادراك ذاته ، والفكرة هي التعبير عن جميع اداكاتنا ، وتنقسم الإدراكات و الإنطباعات و الأفكار من حيث تركيبها إلى بسيطة (Simple) ومركبة (Compound) ، الأولى لا تقبل القسمة إلى اجزاء ، بينما المركبة تقبل مثل البرتقالة التي يمكن تحليلها إلى أفكار بسيطة عن اللون ،والشكل ،والطعم و الرائحة ، كلها تتركب معا في فكرة واحدة عن البرتقالة.

ومع أن العقل قادر على ربط الأفكار البسيطة على نحو مايشاء فيكون منها أفكارا مركبة لا نظير لها في الواقع ، مثل فكرتنا عن حصان مجنح أو جبل من ذهب أو بساط يسابق الريح ، فإن قدرته على الرغم من ذلك محدودة ولا تتعدى تجميع ونقل ، وزيادة أونقصان المواد التي توجد في الواقع الخارجي و تقدمها إلينا الحواس والتجربة[2] .

[1] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 40
[2] إبراهيم مصطفى إبراهيم – الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم –مرجع سابق – ص 335

أي أن الإدراكات البسيطة وهي الإدراكات التي لا تتجزأ أو تقبل القسمة ، في حين أن الإداكات المركبة هي الإدراكات المؤلفة من الإدراكات البسيطة ، وهي قابلة للقسمة والتجزئة .

ونستنتج من خلال هذا أن الإدراكات عند " د يفيد هيوم " هي عبارة عن الانطباعات ، و التي هي عبارة تصورات التي تضغط علينا بأكبر قدر من القوة والعنف ، وتشمل الأحاسيس ،و العواطف ، والأفكار هي عبارة عن صور باهتة لتلك الإنطباعات.

المبحث الثاني : الفرق بين كل من الإنطباعات و الأفكار وأيها أصل للأخر؟:

إن أولى المقدمات التي يقيم عليها "د يفيد هيوم" فلسفته في التصور ، هو تفرقته بين ماهو إنطباع وماهو فكرة ، بحيث لا يطلق هيوم على موضوعات العقل مصطلح "الأفكار " كما فعل "جون لوك "و "جوج باركلي " ، بل يطلق عليها "إدراكات " ، وهو يقسم هذه الإدراكات إلى كل من الانطباعات ولأفكار ، ففي الحالة التي يكون فيها الوضوح جليا نطلق عليها إسم إنطباعات، و هو الذي ينطلق من التجربة الحسية كالبصر أو من نشاط كالذاكرة مثل التفكير ،و تكون الإنطباعات أكثر تأثيراً و وضوحا من الأفكار التي هي نسخ مصورة من تلك الإنطباعات[1] ،لكن السؤال المطروح هنا : ما الشي الذي يميز الإنطباعات عن الأفكار؟

يجيبنا " هيوم " بقوله : "ونحن نميز الإنطباعات عن الأفكار وهي الأقل حيوية ضمن الإدراكات التي نعيها عندما نفكر في تلك الإحساسات، أو الحركات التي تقدم ذكره ا"[2].

ويفرق هيوم بين الفكر والإنطباع ، في درجة الحيوية و الوضوح ، فالفكرة هي الإنطباع بعد أن تخف حيويته ودرجة وضوحه ، وعلى هذا يفرق في الإنطباعات نفسها بين الإنطباعات الأصلية و الثانوية ، فالإنطباعات الأصلية هي التي تنتج من بنية الجسد (الغرائز) أو من تطبيق المواضيع الخارجية على الحواس الخمس ، في حين تنتج

[1]برتراند راسل – حكمة العرب – ت.فؤاد زكريا –د م – ج 2 – 1983 – ص99.
[2]دفيد هيوم - تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 40

الإنطباعات الثانوية أو التأملية م ن الإنطباعات الأصلية إما مباشرة أو بتوسط أفكاها [1]، ويميز هيوم الإنطباعات والأفكار من حيث درجة قوتها وحيويتها، فللإنطباعات أكثر قوة وحيوية من الأفكار ، إن إنطباعي عن اللون الأحمر المشرق لهذه الطماطم الناضجة واضح مثل أي شيء يمكن أن يكون ، كانت الطمطام في العام الماضي حية تماما عندما كنت أنظر إليها ، لكن فكرتي عنها الأن أقل وضوحا من إنطباعاتي عن الطماطم التي أمامي ، نظرا لأن طماطم العام الماضي كانت بنفس اللون ، لا يمكن أن يكون الإختلاف هو أنها بدرجات مختلفة من اللون الأحمر ، يجب أن يكمن الإختلاف في حدة ووضوح وسطوع إنطباعاتي أي قوتها وحيويتها في أوقات مختلفة.

فالأفكار هي أكثر حرية وإنطلاقا من الإنطباعات ، فقد يحملنا الفكر إلى أبعد من العالم ،وهذه عليها عادة ذهنية ناتجة عن نفسية الإنسان ، لأن في الواقع عند هيوم الأفكار محجور عليها في حدود ضيقة فلا يستطيع الذهن تعد الملكة المكتسبة من خلال الخبرة والحواس ، يقول هيوم "ورغم أنه يبدو لخاطرنا هذه الحرية التي لا حد لها ، فإننا ما فحصناه عن قرب ، وجدنا أنه في الحقيقة رهين حدود ضيقة ، وأن كامل هذه المقدرة الإبداعية التي للذهن لا تتجاوز قوة التركيب، و النقل و الزيادة، أو التخفيض من المواد التي توفرها لنا الحواس و التجربة "[2] .

ويقول د يفيد هيوم :" ونحن نميز الإنطباعات عن الأفكار ، وهي الأقل حيوية ضمن الإدراكات التي نعيها عندما نتفكر في تلك الإحساسات أو الحركات التي تقدم ذكرها "[3]

والمعنى أن الفرق بين الإنطباعات و الأفكار هو فرق في الدرجة لافي الطبيعة ، ولإثنان عنده من نوع واحد ، إذ هما معا ادراكات ، و إذا كانت الإنطباعات حسية فالأفكار أيضا حسية ، وكل فرق بينهما أن الإنطباعات إدراكات تنطبع على الإدراك الحسي ، و الأفكار إدراكات تنطبع على العقل ، و ما ينطبع على الإدراك الحسي يكون قويا و عنيفا ، و ما ينطبع على العقول يكون خافتا و ضعيفا ، الإدراك المنطبع على الإدراك الحسي هو تأثر

[1] دفيد هيوم – رسالة في الطبيعة البشرية – مصدر سابق – ص 32
[2] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 41.
[3] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 40

مباشر للحواس بالأشياء وبالخبرة التجريبية ، أما الإدراك المنطبع على العقل فهو مجرد صورة خافتة للأشياء والخبرة ، وإذا كان الإدراك الحسي يتلقى تأثرات قوية من الخارج ،فإن العقل لا يتلقى إلا صورا ، بمعنى أنه لايتلقى الإنطباع الحسي نفسه بل يتلقى صور ذهنية عنه ، والفرق الأساسي بين الإنطباعات والأفكار تكمن في أن الإنطباعات تترك أثرا أكثر وضوحا بفعل إتصالها المباشر مع المعطيات الحسية ، وبذلك يكون هيوم قد نفى تمييز العقلانين بين معطيات الحس والعقل ، وإعطاء الأولوية للعقل ، لأن العقل عند هيوم لم تعد له وظيفة سوى التذكر والتداعي الأفكار المستمدة من الخبرة الحسية ، وتتميز الإنطباعات من الافكار التي هي ماهو أقل حياة في إدراكاتنا وما نعييه عندما نفكر بأي من إحساسات أو الحركات التي ذكرت الأن[1].

ففرق هيوم بين كل من الإنطباع و الفكرة فيما يلي ف"لإنطباعات" التي ينطبع بها الإنسان إنطباعاً مباشراً حين يحس شيئًا بإحدى حواسه، أو حين يتمرس تمرس ا مباشرا بحالة معينة من حالات وجدانه، وبين ما تخلفه تلك الانطباعات عند صاحبها من صو ر ذهنية ،أو ذكريات وهو يطلق إسم "الأفكار" على أمثال هذه الصور، والذكريات فليس منا من لا يعرف الفرق الواضح بين الإدراك العقلي عند من يعاني لذع الحرارة الشديدة، أو من ينعم بالدفء، وإدراكه العقلي حين يستعيد ذلك الرجل نفسه ذكرى ما قد عاناه من لذع أو ما قد نعم به من دفء؛ فهذه الذكرى إنما تجيء على غرار ما قد أحسه الإنسان عند الانطباع الأول المباشر، لكنها يستحيل أن تبلغ من حيث القوة والوضوح ما قد بلغه ذلك ا لإنطباع؛ فالتفرقة إذن واضحة بين إحساسي بالشيء حين أكون على صلة مباشرة به، وبين صورته التي أستعيدها في ذهني حين لا يكون الشيء نفسه قائما على مشهد مني أو مسمع؛ فها أنا ذا أنظر إلى الغرفة التي أنا الآن جالس فيها، فلا أتردد في أني أحسها بالرؤية إحساسا مباشرا؛ ثم ها أنا ذا أستعيد في ذهني صورة غرفة في منزل صديق زرته بالأمس، فلا أتردد كذلك في أن ما قد استحضرته في الذهن إن هو إلا صورة شيء ليس الآن على صلة مباشرة بحواسي؛ ويستحيل أن يختلط عليَّ الأمر في أي من الحالتين، بل إني لأفرق تفرقة لا موضع فيها لشك بين ما هو "انطباع" وما هو "فكرة" ، اللهم إلا إذا اختل العقل عن مرض

[1]أيوب أبو دية – العلم والفلسفة الاوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم – مرجع سابق – ص230.

أو جنون ، فعندئذ فقط قد تتشابه علينا الحالات فلا ندري أيكون ما ندركه إحساسا لشيء أمامنا أم تصورا لفكرة في ر ؤسنا؛ أما في الحالات السوية فالإدراكان متميز أحدهما من الآخر ، بما بينهما من فرق بعيد في درجة الوضوح، وأقصى ما يمكن أن تبلغه الصورة الذهنية، أو "الفكرة" باصطلاح هيوم، فهو أن تدنو في وضوحها من الأصل،لكنها محال أن تساويه، وإن الإنسان إذا ما أراد أن يصف فكرة في رأسه عن شيء ما ،فخير ما يقوله عنها هو أنها تكاد تمثل له الشيء كأنه قائم بذاته على ملمس منه أو مرأى ؛وكافة ألوان الشعر، مهما بلغت من الروعة، محال عليها أن تصور الأشياء الطبيعية على نحو يزيل الفرق بين الصورة والأصل المصور ، بحيث يختلط الأمر على القارئ فلا يدري أهي صورة للمنظر الطبيعي أم المنظر الطبيعي نفسه .

هذة التفرقة بين المدرك الحسي وصورته في الذهن ، أوقل بين "الانطباع"و "الفكرة " تعم بحيث تشمل سائر الإدراكات العقلية جميعاً ، ففرق بعيد بين الغاضب ساعة غضبه وبين حين يسترجع بالذاكرة إنفعال الغضب الذي كان ، والفرق بعيد بين إدراكي لعاطفة الحب حين يحكى لي عنها عند شخص أخر ، وبين إدراكي لهذه العاطفة نفسها حين أكابدها وأعانيها ، وهكذا قل في سائر العواطف من حيث الفارق البعيد في إدراكها بين حالتي الصورة المعادة ، بحيث تجيئ طبق أصلها لا تنحرف بنقص أو زيادة ، ولكنها مع ذلك فلابد أن تجيئك وقد خفتت ألوانها عما كانت عليه العاطفة ساعة وقوعها ، وليس هذا الفرق في نصوع اللون ووضوحه وبين الأصل ساعة حدوثه والصورة المسترجعة فيما بعد ،مما يتطلب لإدراكه دقة في الملاحظة أو عمق في التأمل ، بل هو فرق سارخ يدركه حتى ذو النظرة العابرة[1] .

وللتوضيح أكثر عن الإنطباع الحسي المباشر ، أستطيع القول هنا كرأي شخصي أن الإنطباع الحسي هو ردة الفعل وبين الفكرة التي تختلف عن هذا الإنطباع، أي في حالة إسترجاع ردة الفعل في هذه الحالة فقط نستطيع أن نميز بين الإنطباع و الفكرة ، مثال : ساعة نجاح شخص ما في شهادة الباكالوريا ،فإن هذا الشخص سيشعر بفرحة كبيرة لكن عند مر الزمان لو أراد هذا الشخص إسترجاع تلك اللحظة من السعادة عند السماع بالنجاح

[1] كي نجيب محمود- دفيد هيوم- مرجع سابق – ص 28.

فإن هذه الأخيرة ستكون مختلفة ،لأنها تبقى مجرد فكرة مضى عليها من الوقت ما جعلها تكاد تصبح لا موجودة ولم يبقى منها إلا الشتات ، وبالتالي فإن الإنطباع هو الذي يتجلى بوضوح وله من التأثير ما يجعله واضحا ، بينما الأفكار فإنها تكون أقل حيوية وفعالية باستثناء حالة إصابة المرء بالجنون لأنه لا يميز بينهما.

يبدأ "هيوم" بالقول أن كل فكرة بسيطة مشتقة من إنطباع بسيط ، بحيث تكون جميع أفكارنا مستمدة في النهاية من التجربة ، وهكذا يقبل هيوم المفهوم التجريبي ويرفض الأفكار الفكرية والفطرية البحتة الموجودة في الفلسفة العقلانية ، حيث يقول هيوم " إن جميع أفكارنا البسيطة في أول ظهور لها مشتقة من الإنطباعات البسيطة ، والتي تتوافق معها ، والتي تماثلها تماما " ، ولأن الأفكار والإنطباعات متراب طة بشكل كبير وجود أحدهما له تأثير كبير على وجود الأخر ، مثل هذا الإقتران المستمر ، في مثل هذا العدد اللامتناهي من الحالات ، لا يمكن أن ينشأ عن الصدفة ، لكنه يثبت بوضوح إعتماد الإنطباعات على الأفكار، أو الأفكار على الإنطباعات.

" فهيوم " يقول أن هناك أسبقية للإنطباعات على الأفكار ، ونعبر عن هذا بمثال أعطاه "يمكننا تصور فرس فاضل ، وذلك بالرجوع إلى شعورنا نستطيع أن نتصور الفضيلة ، وهذه يمكننا أن نركبها إلى صورة فرس و شكل الفرس ، وهو حيوان أليف لنا " [1]، وهذا أن كل مواد التفكير هي مشتقة إما من إحساساتنا الداخلية أو الخارجية ، أو بالغة أخرى إن كل أفكارنا هي عبارة عن نسخ من إنطباعاتنا ، وبهذا فإن هناك أولوية للإنطباعات عن الأفكار .

إستند "هيوم" إلى حجتين لتقرير أن الحس (الإنطباع) هو أصل ، أو المصدر الوحيد لكل محتويات الذهن التصورية:

الأولى : عندما نحلل أفكارنا أو إيدياتنا وأياً كان مبلغ تركيبها وسموها ، فإننا نرى أنها أفكار تتحلل أبدا إلى أفكار بسيطة كانت قد نسخت عن سابق إحساس أو شعور ، وحتى الأفكار التي تبدو للوهلة الأولى أبعد الأفكار عن الأصل ذاك ، نجد عند فحصها ، عن كثب

[1] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 41ص 42.

، أنها تشتق منه فكرة الله من حيث تعني كائنا عاقلا ، وحكيما ورحيما بمالا يتناهي ، تتولد من التفكير في عمليات ذهننا الخاص حين نزيد بلا حدود خاصيات الرحمة والحكمة تلك ،ويمكننا أن نتابع هذا البحث إلى أبعد ما يطيب لنا من البعد ، فلسوف نجد أبداً أن كل فكرة نتفحصها هي نسخة عن إنطباع مماثل ، أولئك الذين يؤكدون أن هذه القضية ليست صادقة كليا و أنها ليست من دون إستثناء ، ليس لديهم سوى طريقة واحدة لدحظها ، وهي ط ريقة ميسورة : أن ينتجو الفكرة التي في رأيهم لا تشتق عن هذا الأصل، وسيكون علينا عندها إن شئنا أن نحفظ مذهبنا أن نتتبع الإنطباع ، أي الإدراك الحي الذي يتناسب معها [1] ، أي أن تلك الأفكار والإدراكات التي نعتقد إنها بعيدة جدا عن الحس والإحساس ، والشعور ،والإنفعال ، هي في الحقيقة وعند التدقيق تشتق منها بما في ذلك فكرة الإله المطلق .

الثانية : لو حصل عيبا في العضو أفقد أمرأ نوعاً من أنواع الإحساسات ،فسنجد أبداً أنه قلما يكون قادرا على إمتلاك الأفكار المتناسبة معها [2]، أي أنه إذا تعطل لدى الإنسان عضو من أعضائه الحسية ، فإنه يفتقد إدراكه الموازي لذلك الإحساس ، فمثلا الأعمى لا يمكنه أن يكون أي فكرة عن الألوان ، وكذلك الأصم عن الأصوات ، لأنه يفتقر إلى الإنفعالات الموازية ، فلا يمكن لرجل ذي أداب لطيفة أن يكون أدنى فكرة عن عناد الثأر أو القساوة ، ولا يمكن لقلب أناني أن يتصور بسهولة قمم الصداقة والكرم ، ومن السهل التسليم بأن يكون لكائنات أخرى كثير من الحواس التي لا يمكننا تصورها بأي شكل ، لأن أفكار الحواس هذه لم تدخل البتة فينا بالطريقة الوحيدة التي بها يمكن لفكرة أن تعبر إلى الذهن أعني بالشعور الراهن والإحساس[3].

ومع ذلك ، لا يزال هناك مثال مضاد محتمل تسبق فيه الأفكار إنطباعاتنا المقابلة ، هناك مجموعة متنوعة من الألوان أو الأصوات المختلفة التي نشعر بها ، لكن غالبا ماتشبه هذه الألوان أو الأصوات بعضها البعض إلى حد ما ذلك ، ينتج كل لون فكرة مقابلة على الرغم من أن الألوان تشترك في التشابه ، ومن ثم يجب أن ينتج كل ظل من كل لون فكرة أيضا ،

[1] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – مصدر سابق – ص 40.
[2] المصدر نفسه – ص 41.
[3] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – مصدر سابق – ص 41.

لأن كل ظل لا يزال مختلفا عن البقية ، على الرغم من أن التشابه بينهما أقوى قليلا من بين الألوان المختلفة ، يجب أن نعترف بأن هناك فكرة لكل ظل ، وإلا فإن الألوان سوف تتداخل مع بعضها البعض لدرجة أننا لا نستطيع تميز أي منها ، يقول هيوم " ليس من الممتنع ، إمتناعاً مطلقاً ، على الأفكار أن تتولد بمعزل عن الإنطباعات التي تتناسب معها ، وأعتقد بأنه من السهل التسليم بأن مختلف الأفكار المتمايزة عن الألوان التي تدخل من العينين ، وعن الأصوات التي يجليها السمع في الحقيقة متميزة بعضاً من بعض على الرغم من أنها تتشابه في الوقت نفسه ، لكن إذا كان صحيحا عن الألوان المختلفة ، فإنه لايقل صحة عن مختلف تلاوين اللون الواحد ، وكل تلوين يحدث فكرة متميزة مستقلة عن الأخريات ، إذ لو أنكر علينا ذلك لأمكننا بتدرج متصل من التلاوين أن نجلب بشكل لا محسوس لونا ما حتى اللون الذي يختلف عنه أكبر إختلاف ، فإذا لم تسلم بالفارق بين الأوسطين لا يمكنك ، من دون خلف أن ترفض تماثل الطرفين "[1].

ثم جعلنا "هيوم" نفكر في هذا السيناريو "لنفترض إذن أن شخصا ما قد إستمتع بالبصر لمدة ثلاثين عاما ، وأنه أصبح على دراية تامة بالألوان من جميع الأنواع ،بإستثناء ظل واحد من اللون الأزرق ، على سبيل المثال ، لم يكن من حسن حظه أن يلتقي به ، دع كل الظلال المختلفة لهذا اللون ، ماعدا ذلك الفردي ، توضع أمامه و تنزل تدريجيا من الأغمق إلى الأفتح ، من الواضح أن سيرى فراغا ، حيث يكون هذا الظل مطلوبا ، كما سيقال منطقيا ، وأن هناك مسافة أكبر في هذا المكان بين الألوان المتجاورة ، أكثر من أي مكان أخر " بإمكانه أن يسد هذا النقص بالمخيلة وحدها ، وأن يعطي لنفسه فكرة بذلك التلوين الخاص الذي لم تقدمه إليه حواسه ؟، يجيب "هيوم " أعتقد أن هناك قليلا من الأشخاص سيرون أنه يستطيع [2]، على الرغم من كل هذه الإستثناءات إلا أن "هيوم" يقلل من شأنها ، ويؤكد أن كل أفكارنا هي نسخ خافتة لإنطباعاتنا .

ومن هنا يتبين لنا أن الإنطباع يمثل كل معرفة ماثلة للعيان ،أما الفكرة فهي تذكر ذلك الإنطباع الحسي بعد أن يكون غائب عن الحواس ، ومن هنا فإن الإنطباعات تمثل ركنا

[1] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – مصدر سابق – ص 42.
[2] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – المصدر نفسه ص 42 ص43.

أساسيا في منظومة "هيوم" الإبستمولوجية ، حيث تعتب ر مرجعا لجميع الإدراكات ، وكل إدراك مسبوق بالإنطباع دائما ، فلا فكرة حينئذ إلا وتكون متخذة بشكل من الأشكال من الإنطباع .

وبهذا فإن المعرفة عند "هيوم" تعود إلى الأفكار و الأفكار إلى إنطباعات ، التأملية ، أي الإنطباعات هي أصل لكل لمعارفنا ، ويعتبره"هيوم" المبدأ الأول في علم الطبيعة البشرية،

والانطباعات هي مصدر الأفكار وأسبابها، وذلك كون" الإقتران المتتابع لإدراكاتنا المتماثلة هو دليل كاف على أن بعضها سبب البعض الآخر،وأن أسبقية الانطباع هو أكبر دليل على أن الانطباعات هي أسباب أفكارنا [1] ، وتنتج الأفكارمن إنطباق الإنطباع على الحواس ويجعلنا ندرك حرارة ظمأ أو جوعا، وثمة نسخة من هذا الانطباع يحصل عليها الذهن" ، وتظل الفكرة عن اللذة أو الألم في النفس انطباعات جديدة بالرغبة و النفور بالألم، وهذه الانطباعات تنسخ من جديد بواسطة الذاكرة أو الخيال، وتصير أفكارا، وهذه تؤدي بدورها إلى نشوء انطباعات وأفكارا أخرى. فالتجربة توضح لنا بأن الانطباع حين يمثل في الذهن يتخذ بعد ذلك مظهر فكرة، ويحدث هذا على منوالين: الأول عندما يحتفظ في مظهره الجديد بدرجة من حيويته الأولى، فيكون وسط بين انطباع وفكرة، فتقوم الذاكرة باستعادة الانطباع على المنوال الأول، أما الثاني هي حالة فقد الحيوية يقوم الخيال باسترجاع الانطباع إلى المنوال الأول"[2] .

بما أن كل فكرة منشؤها إنطباع حسي في نظر "هيوم " ، إذن ماذا بشأن الأفكار التي تستمد من التجربة أو الحس ، كأن نقول مثلا هناك جبل من ذهب أو حصان أو طائر ، يذكر "هيوم" ملكتين هامتين في تكوين الأفكار ، فهناك الذاكرة التي تقوم بحفظ الأفكار وإسترجاعها وفق ترتيب معين على المنوال الذي يكون العقل قد حصل عليها بدرجة من الحيوية والقوة ، وهناك المخيلة التي تتميز عن الذاكرة بالحرية في التصرف بالأفكار " إذ يتناول الأفكار البسيطة فيفصل ويؤلف فيما بينها ،مكونا الصور والأوضاع التي يريدها ،

[1]رسول محمد رسول – المعرفة النقدية –مدخل إلى نظرية المعرفة – دار الكندي – الأردن – ط1 -1996 – ص 21.
[2]رسول محمد رسول – المرجع نفسه – ص23.

كأن يتصور إنسانا برأس طائر ... لكن هذا العمل مهما بلغ من الخيال لا يخرج عن ما تقدمه الحواس والتجربة "[1].

ويفرق "هيوم" بين أفكار الذاكرة وأفكار الخيال ، فيقول : إن الأولى أنصع و أقوى من الثانية ، لأنها صورة مباشرة لمدركاتنا ، إذ الذاكرة تحتفظ بالصورة الأصلية التي أدركنا عليها الأشياء ، أما الخيال فهو يتناول هذه الصور الفكرية بالتغيير والتحرير ، وبعبارة أخرى أن الذاكرة تقف عند حدود التجربة ، أما الخيال فلا يقيد نفسه بذلك ، ولهذا يقع في الكثير من الأخطاء ويختلف كثيرا من الدعاوي التي لا يمكن البرهنة عليها [2]، والأفكار التي تركبها المخيلة هي في الأساس أفكار بسيطة ناتجة عن إنطباعات أولية فهذه الأفكار تستعيدها الذاكرة وتركبها المخيلة ، فكل فكرة تركبها المخيلة لها عناصر وا قعية وحسية في الذهن ،مثلا فكرتي عن جبل من ذهب هي ناتج فكرتين مركبتين من (جبل + ذهب)، أي أننا على أرض الواقع والحس كانت هناك إنطباعات و أفكار بسيطة .

ويحدد"هيوم" القوانين التي يتم بواسطتها الربط بين الأفكار أو المعاني ، فيقول :"ورغم أن إرتباط الأفكار المختلفة قد بلغ من البداهة ملا يمكنه معه أن يدق عن الملاحظة ، فإني لا أرى من الفلاسفة من حاول إحصاء مبادئ التداعي أو تصنيفها ... وعندي فإنه يظهر أنه ثمة فقط ثلاثة مبادئ للترابط بين الأفكار وهي :

1)- التشابه : وهي تتعلق بكل قضية يتم الحكم على صدقها بالحدس أو البرهان القياسي المنطقي (كافكرة المربع، إذ لا داعي لوجود مربع واقعي حتى نتصور المربع كشكل هندسي ، وهكذا الأمر بالنسبة للقضايا الرياضية والهندسية الأخرى).

2)- التقارب الزماني و المكاني : إن كل قضية يتم الحكم على صدقها على أساس الخبرة الحسية بإرتباطها بزمان ما ومكان محدد ما ، كتذكر واقعة ما في إرتباطها بالأشخاص و المكان والزمان ...الخ.

[1] كريم متى – الفلسفة الحديثة عرض نقدي – دار الكتاب المتحدة 2001- ص 207.
[2] زكي نجيب محمود – قصة الفلسفة الحديثة – القاهرة لجنة التأليف و الترجمة و النشر – ص235-236.

3)- رابطة العلة بالمعلول (السببية) : [1]، والسببية هي أوسع الروابط الثلاث إنتشارا أو أشدها إتصالا بالحياة العادية ، فكل مايقع من حوادث بين الأشياء إنما يحدث وفقا لقاعدة السببية ، ولهذا فإن "هيوم" يختصها بشطر كبير من بحثه الملاحظ من هذا أن بالخيال يتم الربط بين الأفكار التي تشابهت إنطباعاتها أو تجاوزت في المكان والزمان أو إقترنت سببا ، وهذه الأفكار تتداعى بحسب قوانينها[2].

وبناءً على ماسبق فإن "هيوم " وبصفته فيلسوف ذات نزعة تجريبية ، فإنه قد أرجع أصل الأفكار مهما كانت مجردة إلى التجربة والخبرة الحسية ، ويرفض أي فكرة لا تصلنا عن طريق الإنطباعات ويعتبرها أفكار وهمية وزائفة ، لأن الفكرة في نظره هي عبارة عن تذكر لذلك الإنطباع عندما يغيب عن الحواس ليس غير ، إذن فالإنطباعات هي أصل و مصدر لكل أفكارنا ومعارفنا.

[1] أيوب أبو دية – العلم و الفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم – مرجع سابق – ص 233.
[2] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – مصدر سابق – ص 46.

الفصل الثالث

تطبيقات المبدأ الحسي على العلية

الفصل الثالث: تطبيقات المبدأ الحسي على العلية :

ظهر مفهوم العلية منذ بداية التفكير الفلسفي، بحيث يعتبر من أهم المشاكل الفلسفية التي إهتم بها الفلاسفة وخاصة في العصر الحديث ، من بينهم "د يڤيد هيوم " ، حيث كان تفسيره قائم على ملاحظته للعالم أو الواقع الخارجي ، فكانت مناقشته لمبدأ العلية هو إثبات خطأ التصور السائد حول العلية ، فهي من بين الدراسات التي جعلته أكثر شه رة من خلال هجومه على كل من التصور العقلي و التصور التجريبي لمبدأ العلية ،وبهذا نتساؤل عن تصور دڤيد هيوم لمبدأ العلية ؟

المبحث الأول : مفهوم العلية و تحليله عند دڤيد هيوم :

تعتبر مسألة السببية أو العلية من أقدم المسائل في عالم الفكر و الوجود ، بحيث تعود جذورها إلى العصر اليوناني مع أفلاطون * و أرسطو ** ، أي منذ بداية التفكير الفلسفي ، أما في العصر الحديث فقد شهدت إختلافا كبيرا ، خاصة في جوازها من عدمه و مصدرها وتفسيرها، حتى في تعريفها فنجده يختلف خاصة عندما ننتقل من مجال إلى أخر ، و نجد الفيلسوف "دفيد هيوم " تحدث عن السببية وذلك من خلال مؤلفه الرئيسي "رسالة في الطبيعة البشرية" ، وبما أن بحثنا يقتضي الحديث عن العلية من منظور "دفيد هيوم" سنحاول التركيز على على أهم آراءه حول هذا المبدأ ، ولهذا نتساءل: ماهو مفهوم العلية عند "دفيد هيوم" ؟ ومن أين مستمدة فكرة العلية أهي من الإنطباع أم من ماذا؟

---

*فيلسوف يوناني كلاسيكي ، رياضياتي ،كاتب لعدد من الحوارات الفلسفية ، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي ، معلمع سقراط و تلميذه أرسطو ، وضع أفلاطون الاسس الأولى للفلسفة الغربية و العلوم ("Plato". Encyclopaedia Britannica. 2002.).

**هو فيلسوف يوناني و تلميذ أفلاطون و معلم الإسكندر الاكبر . و هو مؤسس مدرسة ليسيوم و مدرسة الفلسفة المشائية و التقاليد الارسطية ، وواحد من عظماء المفكرين ، تغطى كتاباته مجالات عدة ، منها الفيزياء و الميتافيزيقيا و الشعر و المسرح والموسيقى و المنطق و البلاغة و اللغويات و السياسة و الحكومة و الاخلاقيات و علم الاحياء و علم الحيوان ،كان لفلسفته تاثير فريد على كل شكل من أشكال المعرفة تقريبا في الغرب ، ولا يزال موضوعا للنقاش الفلسفي المعاصر (Thorndike, Lynn (1965). "Chiromancy in Medieval Latin Manuscripts"، Speculum، 40: 674– 706، doi:10.2307/2851404).

مفهوم العلية :

1)- المفهوم اللغوي :

كلمة العلة في اليونانية تدل أولاً على الإتهام ، بل على إرتكاب الإثم أو الجريمة ، ومنها الصفة تدل على المسؤول ، وفي اللاتينية كلمة Causa تدل على السبب إلى مايحدث شيئا ، وعلى المحاكمة و الدفاع في القضاء [1]، والعلية في اللغة الفرنسية Cause ، والمؤكد أن مصدرها Caver فالمعنى القديم للكلمة هو حقوقي ، غير أن الإغريق تصوروا الفعل الحقوقي من زاوية الإعلال أو التعليل "الإدعاء أو إقامة دعوى " ، ونظر اللاتينيون إليها من زاوية الدفاع ، وفي الألمانية يبدوا أن أصل Sache حقوقي ايضا[2] .

وترتبط العلة بالسبب ، عندما يقال A علة B ،إنما يراد القول أن وجود A هو السبب في وجود B ، وبهذا تصبح العلة حالة خاصة من السبب ، الأمر الذي يقودنا إلى واحدة من مصادرات العقلانية الديكارتية[3]، وبهذا فإن السببية هي مرادفة للعلية ،فالسببي Causal هو منسوب إلى السبب، ويطلق على ما يتعلق بالسبب ويختص بها ويقومه ، والسببية Causalité هي العلاقة بين السبب والمسبب ، ومبدأ السببية Principe de cousalité أحد مبادئ العقل ويعبرون عنه بقولهم لكل ظاهرة سبب[4] .

2)- المفهوم الإصطلاحي :

يختلف المعنى الإصطلاحي للعلية بإختلاف المجال الذي تذكر فيه ، ففي علم النفس مثلا السبب هو العامل في وجود الشيء ، ويطلق على كل حاجة نفسية شعورية كانت أو غير شعورية[5]، نقول مثلاً الأسباب المتحكمة في السلوك الإنساني ، وتجعل منه سلوكاً سوياً أو منحرفاً ، والسبب عند علماء الأخلاق ما يفضي إلى الفعل الأخلاقي ويبرره وهو مرادف

[1]عبد الرحمان بدوي – مدخل جديد إلى الفلسفة – وكالة المطبوعات - الكويت – د/ط.1974- ص108.
[2]أندريه لالاند –موسوعة لالاند الفلسفية – ت.د.خليل أحمد –منشورات عويدات –بيروت –باريس –ط2- 2001- ص 154.
[3]أندريه لالاند – المرجع السابق – ص 156.
[4]جميل صلبيا –المعجم الفلسفي جميل صلبيا – دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان-د/ط.1982- ص 648.
[5]جميل صلبيا – المعجم الفسفي –المرجع السابق – ص 648.

للحق [1]، نقول مثلاً فلان يبغضني بغير سبب أي بغير وجه حق ، والسبب في الفلسفة هو المبدأ الذي يفسر الشيء تفسيراً نظرياً ، وهو ما يتوصل به إلى غيره ، أو كما قال أحد الفلاسفة، ما يحتاج إليه الشيء في ماهيته أو وجوده ، لذلك سمي سبباً عقلياً [2].

ويجب القول أن مفهوم العلية أو السببية لا يلقى تعريفه الإجماع في الوسط الفلسفي ،فنجد أن الفلاسفة و العلماء لا يتفقون على مفهوم واضح وصريح له ، وهذا مايترك المجال مفتوحاً أمام الإختلاف ، ليبقى مفهوم العلية إشكالية إبستمولوجية نفرق بها بين الفلاسفة والعلماء ، ويكفي القول أن مفهوم العلية ومعناها يكون على حسب المجالات المستخدمة فيها ، فإستعمالها في ميدان الأخلاق غير إستعمالها في ميدان الفلسفة ،و كذلك إستعمالها في ميدان علم النفس يختلف عن إستعمالها في ميدان علم الإجتماع ، وهذا الإختلاف مفيد لأن التضاد يقود إلى الطريق الصحيح للمعرفة كما يؤكد هي غ* بأن الفكرة تقتضي وجود رقيضها ،وهذا مايؤدي إلى بزو غ فكرة جديدة حديثة وهذا الإختلاف يؤكد المضي في الطريق الصحيح للمعرفة .

مفهوم العلية عند دفيد هيوم :

يرى "هيوم " أن علاقة العلية لا تنشأ عن التفكير العقلي المحض ، ولا يمكن إستنباط مبدأ العلية من مبدأ عدم التناقض ، إذ لا تناقض في تصور بداية شيء دون رده إلى علة [3] ،حيث نجد مبدأ عدم التناقض لا يمكنه تبرير العلاقة بين كل من العلة و المعلول ، أي أن السببية لا يمكنها تقديم تبرير عقلي بإعتباره قادراً على إحداث نتيجة ما ، لأنها بذلك سوف تكون مجرد تتابع لأحداث وليس في هذا التتابع أي ضرورة منطقية أو طبيعية ، و أن كل ما تؤكده الحواس والخبرة هو إرتباط السبب بالنتيجة في الماضي .

"وهيوم" بعد تحليله لفكرة العلية وجدها تتكون من ثلاث علاقات وهي : الإتصال - الأسبقية الزمانية و الضرورة.

[1] المرجع نفسه – الصفحة نفسها .
[2] المرجع نفسه – الصفحة نفسها .

[3] يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة – مرجع سابق – ص167.

- **الإتصال:** يقول "هيوم" إن فكرة العلية لابد أن تكون مشتقة من العلاقة بين الأشياء ، وعلينا الأن أن نحاول الكشف عنها ،إني أجد في المقام الأول أن الأشياء التي تعد عللاً و معلولات متصلة فيما بينها ، و أنه لا شيء يمكن أن يفعل في الزمان والمكان يبعد أقل بعد عن وجوده ، وعلى الرغم من أنه يبدو أن بعض الأشياء المتباعدة قد تنتج البعض الأخر ،فإن المزيد من البحث يكشف أن بينها إتصال في حالة معينة ،فإننا مع ذلك نظل نفترض وجوده ، و من أجل هذا نستطيع أن نعدَ علاقة الإتصال أساسية وجوهرية لعلاقة العلية[1].

- **الأسبقية الزمانية :** وهي التي تعتبر جوهرية للعلل و المعلولات لا يعترف بها الجميع ، بل تحتمل الجدل ، وهي الأسبقية الزمانية للعلة على المعلول ، ويرى البعض أنه ليس ضروري تماماً أن تسبق العلة بالضرورة المعلول ،بل قد يقع أن يحدث الموضوع أو الفعل في نفس اللحظة الأولى من وجوده ، موضوعاً أو فعلاً أخرمتزامناً معه تماماً ،لكن إلى جانب كون التجربة في معظم الأحوال تناقض هذا الرأي ، فإنها تستطيع أن تقرر علاقة الأسبقية بنوعٍ من الاستنتاج أو البرهان [2].

- **الضرورة :** قد تكون على صورة الإرتباط الضروري بين الوقائع المتصلة المتوالية ، و التي تكتشف بالعادة [3].

وعلى ضوء هذه الأهمية التي يوليها هيوم لفكرة العلية، نجدها تحتل الصدارة في الفكر الهيومي، حيث خصها بالدراسة، وأرجعها إلى التجربة، باعتبار أن التجربة هي مصدرنشوء التصورات في الذهن البشري. والعلية كفكرة من أفكار العقل لا يمكن لها أن تخرج بأية حال من الأحوال عن هذا الإطار.

فهيوم ينفي أن يكون أي إستدلال عقلي طريق إلى المعرفة ، إذ لا يمكننا أن ندرك عقلياً أن هذه العلية ترتبط بذلك المعلول ، فيقول "رغم ما نفترض من أن ملكاته العقلية كانت في البداية على أتم كمال ، فإنه لا يستطيع أن يستنتج من سيولة الماء أنه يمكن أن يحيا به و

[1] عبد الرحمان بدوي – موسوعة الفلسفة ج2 – ص615.
[2] عبد الرحمان بدوي – موسوعة الفلسفة ج2 – مرجع سابق – ص615.
[3] أيوب أبو دية – العلم و الفلسفة الأوروبية الحديثة – مرجع سابق – ص 234.

يغرق ، ومن حرارة النار أنها يمكن أن تحرقه "[1] ، فهيوم هنا ميز بين كل من مبدأ العلية و العلاقات العلية القائمة بين الأشياء ، حيث نريد بهذا المبدا أن لكل حادثة سبب ، ونريد بالعلاقات العلية ، العلاقة القائمة بين التمدد و الحرارة .

فنجد الفلاسفة العقليون ي زعمون أن العلاقة العلية تتضمن فكرة الضرورة ، وكان يقصدون أنه إذا حدثت العلة يجب أن يتبعها حدوث المعلول ، وكأن الوجوب عندهم وجوب منطقي أي ما لا يمكن إنكاره ، لأنها ضرورة آتية من العقل بطرق فطري أو قبلي [2]، يقول "هيوم" فعندما ننظر حولنا من إلى الموضوعات الخارجية ، وعندما نعتبر عمل الأسباب ، فإننا لا نستطيع من خلال حالة مفردة أن نكشف أي تأثير أو إرتباط ضروري ، ولا أي خاصية تشد المفعول إلى السبب، وتجعل أحدهما إستتباعاً للأخر لا يختلف عنه أبداً ، وإنما نجد فقط أن أحدهما يتبع الأخر تبوعاً فعلياً ... وبالجملة فإنه لا يبدوا أن في الطبيعة حالة واحدة من حالات الإرتباط ، يمكن تصورها ، فكل الأحداث تبدو سائبة منفصلة ،حدث يتبع حدثاً ، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نبصر أي رابط بينهما ، فتبدو الأحداث مقترنة ولكنها لا تبدو أبداً مترابطة [3].

فللفلاسفة الذاتيون يؤمنون بما هو ذهني وعقلي ، وذلك من خلال أنهم يرون أن هناك رابطة ضرورية بين العلة والمعلول ، حيث يرى " العقليون أن هناك إرتباطات وثيقة بين الأشياء ، وهي إرتباطات يمكن معرفتها " ، أما "هيوم" ينكر أن تكون هناك إرتباطات كهذه على الأصح حتى لو كانت موجودة ، فمن المؤكد أننا لا نستطيع معرفتها ، وكل مانعرفه هو تعاقبات للأفكار " [4].

أي أن العقليون يرون أن الرابطة بين كل من العلة والمعلول سمة كامنة في طبيعة الأشياء ، لكن "هيوم" يرى عكس ذلك ، بحيث ينفي وجود تلك الرابطة ، إلا أنه يرى تلك الرابطة إن وجدت فإيجادها مجرد تتابع وتكرار لتلك الإنطباعات والأفكار ، ونفى بهذا الضرورة

[1] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص54.
[2] محمود فهمي زيدان – الإستقراء و المنهج العلمي – دار الجامعات المصرية – مصر – ط1 – 1977- ص 105.
[3] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 94 ص 106.
[4] برتراند راسل - مرجع سابق – ص 100.

بين العلة والمعلول ، وقرر أنا ليست ضرورة منطقية بل ضرورة تجريبية ، تعتمد على تتابع عادي قائم على المشاهدة والملاحظة الحسية.

ومن هنا فقد قام "هيوم" من خلال تحليله لهذه العلاقات الثلاث ، ليصل إلى أن " رؤية أي شيئين أو فعلين مهما تكن العلاقة بينهما لا يمكن أن تعطينا أية فكرة عن قوة أو إرتباط بينهما، وأن هذه الفكرة تنشأ عن تكرار وجودهما معاً ، و التكرار لا يكشف ولا يحدث أي شيء في الموضوعات ، وإنما يؤثر فقط في العقل بذلك الإنتقال المعتاد الذي يحدثه ، وأن هذا الإنتقال من العلة إلى المعلول هو القوة و الضرورة و أن هاتين هما إذن صفتان لإدراك لا للموضوعات وتشعر بها النفس ولا تدركان خارجياً في الأشياء [1].

نفترض على سبيل المثال ، أننا إذ لاحظنا لعدة مرات أنه كلما إشتعل لهباً تتبعه باستمرار حدوث حرارة ،فإن تكرار وقوع هذا التلازم بين الحادثتين ، أي أنه كلما حدث إشتعال اللهب تتبعه الحرارة ، ومن هذا التكرار تنشأ في الذهن علاقة تداعي بينهما بحيث أن فكرة أحدهما تؤدي إلى فكرة الأخر، وهذا هو تفسير الإقتران الضروري بينهما ، فالتكرار هنا قد ولد في الذهن عادة فكرية تنبع من عقولنا .

ويرى "هيوم " أيضا أننا لا نستطيع أن نكتشف بطريق قبلي الدفء أي أن تحليل معنى الدفء لا يتضمن في ذاته عنصر النار أو حرارة الشمس ، وتحليل معنى النار لا يتضمن عنصر الدفء ، فتحليل معنى النار يتضمن معرفة للعناصر الطبيعية والكيمياوية التي أدت إلى إحداث النار ، ولكن ليس الدفء أحد تلك العناصر ، وتحليل معنى الخبز يتضمن ما يتألف منه من عناصر مثل القمح أو الذرة المطحونة ، مضافاً إليها الماء ولهيب النار ، وليس التغذي أو سد الجوع أحد تلك العناصر ، يمكنك تصور النار دون تصور الإحتراق أو الدفء، أو تصور الخبر دون تصور التغذي ، التصوران مختلفان وليس الواحد منهما داخلا في تحليل الأخر ، ليست للعلاقة العلية الضرورة المنطقية التي لعلاقة التعريف بالمعروف مثلاً ، أو للبديهيات كقولنا أن المثلث شكل محاط بثلاثة خطوط مستقيمة متقاطعة ، أو أن الجزء أصغر من الكل أو أن نزول المطر يبلل الطرق ، إن تحليل الموضوع في

[1] عبد الرحمان بدوي – موسوعة الفلسفة ج2 – مرجع سابق – ص 615 ص 616.

كل من تلك العبارات يؤ دي إلى أن المحمول يساويه أو هو جزء منه ، بحيث يترتب على إنكارنا لتلك القضايا وقوع في التناقض أو أن تصور نقيض تلك القضايا تصور مستحيل لدى العقل [1].

ويناقش "هيوم" أن مبدأ العلية مصدره تجريبي ، فيطبق معياره الأساسي لصدق الأفكار فيقول "هيوم" هل فكرة الضرورة متواجدة بين أفكارنا ؟ يجيب بالنفي ، حيث ننظر إلى الأشياء و الحوادث في العالم الخارجي تلك التي أن بينها علاقات علية ، فإننا لا نكتشف أي علاقة ضرورية تربط المعلول بالعلة و تجعل المعلول نتيجة لا مناص منها بعد حدوث العلة ، وكل ما نشاهده في الحقيقة هو أن حادثتين تتابعتا في الحدوث أمام إدراكنا ، فيحدث لي إنطباع حسي حين آرى الشمس في الصباح ، ثم يتبعه إنطباع رؤية الضوء ، أي أن كل هذا هو تتابع أو تلازم بين إنطباعين .

يتضح هذا أكثر من خلال تأكيد "هيوم" على العلة والمعلول ،حيث يقول "لا يجب أن نكتفي بالقول أن فكرة العلة والمعلول تولد من المستديم للموضوعات ، لكن علينا أن نؤكد أنها شبيهة بفكر تلك الموضوعات " [2]، أي أن العلاقة بين كل من العلة والمعلول ضرورية موجودة في الذات إلا إذا كانت توصف بالتأمل والحس ،وكذا بالتجربة الحسية ، لأن التجربة لا تفرض شيئاً أخر ولا شيء يسبقها ، فمبدأ العلية عند "هيوم" هو تكرار وتتابع للظواهر أو الحوادث ، فهناك مايسمى علة وهناك ما يسمى معلولاً ، وعند تكرر الحدوث وتكررت ملاحظتنا تتكون لنا عادة عقلية ، و التي مصدرها الملاحظة والمشاهدة ويتساؤل "هيوم" عن أصل العلية؟ فيقول : " فالتعود إذن ، هو المرشد الأكبر للحياة البشرية ، إنه المبدأ الوحيد الذي يجعل الخبرة نافعة لنا ، وهو وحده الذي يجعلنا نتوقع في المستقبل سلسلة من الحوادث المتشابهة لتلك التي ظهرت في الماضي " [3] ، أي أن العلية هي حقيقة ذاتية ترتبط بالطبيعة الإنسانية ، هذا أننا ندرك ككائنات قادرة على الإرادة ، بحيث تعتبر نقطة البداية الضرورية لكل معرفة ، وتصور العلية أساس في خبرتنا لا يمكن الإستغناء عنه .

[1] محمود فهمي زيدان – الإستقراء و المنهج العلمي – مرجع سابق – ص 105.
[2] جيل دولوز – التجربة الذاتية " بحث في الطبيعة البشرية وفقا لهيوم " – ت. أسامة الحاج – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع – بيروت – لبنان – ط1 – 1999 – ص 16.
[3] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – مصدر سابق – ص 73.

إذن العلة مرتبطة بكل ماهو موجود في الكون وتعتبر رابطة ضرورية ، وأكد "هيوم" على أنه أي حادث لا يعمل في نفس المكان والزمان ، بحيث يؤكد على أن مبدأ العلية مرتبط بوجود تعاقب منتظم في الطبيعة ، أي أن العلية ناتجة عن العادة النفسية التي تنتج عن تكرر وقوع الحوادث ، فلولا وجود هذا التعاقب والإرتباط لما وجدت فكرة العلية ، لأن هذه الفكرة تقوم بالبحث عن العلل في كل ما يحيط بها ، وما يهمها وفي أغلب الأحيان تبحث عن العلل الأكثر مباشرة ، و أحياناً عن العلل البعيدة و أخيراً عن العلل النهائية التي هي أيضاً علل أصالية ، يقول "هيوم" إن العادة هي الدليل الأكبر للحياة الإنسانية ، إذ هذا المبدأ وحده هوالذي يجعل تجربتنا مفيدة لنا ، ويجعلنا نتوقع من المستقبل نسقاً من الأحداث لتلك التي ظهرت في الماضي ، أما بدون العادة فإننا سنكون جاهلين تماماً لكل واقعة تتجاوز ماهو حاضر مباشر للذاكرة والحواس [1]، إذن نحن نستدل على معارفنا في المستقبل على ما عرفناه في الماضي وهذه في الحقيقة هي مجرد عادة نفسية ، فمن تعود على رؤية الشمس تشرق كل صباح سيتبادر إلى ذهنه أنها ستشرق كل يوم في المستقبل ، وهذا الأمر معرفياً خاطئ ، لأن الشمس إذا أشرقت اليوم ، فلا يوجد أي ضامن عقلي أو تجريبي أنها ستشرق غداً، ربما لا تشرق و يستمر الليل ، إذن فتصور العلية هو تصور ضروري ، لكن ليس الضرورة هنا منطقية ولا قبلية ولا تجريبية ، إنما هي ضرورة نفسية ، أساسها إدراك تلازم الحوادث ، و إرتباط ذلك التلازم في الذهن وتكوين عا دة نفسية عن توقع ذلك التلازم ، فتلك الضرورة بالتوقع وتكوين العادة تؤدي إلى الإعتقاد بتصور العلية [2].

فكل موجود له بالضرورة علة ، وهذا يدعونا إلى التعمق بالأشياء وتأسيس العلل ، ومن خلال هذا نصل إلى ما يسمى بالأصل ، ويتبين هذا من خلال: " لقد شهد الفكر البشري التصوري هذا البحث عن العلل في جميع مراحله ، وقبل أن يصل إلى مرحلة إقتصاره على تأصيل الأحكام ، هذا الجهد في البحث عن العلل أن كلما نتعمق بالأشياء نجد أنفسنا في

[1] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 74 .
[2] محمود فهمي زيدان – الإستقراء و المنهج العلمي – مرجع سابق – ص 108.

الطريق إلى الأصل " [1]، أي أن البحث في مبدأ العلية هو بمثابة معرفة التنبه إلى العلل و الأصول ، لأن فكرة العلية تعتبر بأنه لا شيء موجود بدون علة .

ويقول "هيوم" أيضاً يعني أن الضرورة تحكم في العلاقة بين السبب والأثر ،ويتضح أن مبدأ العلية يحتوي على جميع المجالات ، "فهيوم " تناولها في مجالات الإنتاج فهدفه هو إنتاج آخر حقيقي تابع من الإنتاج الأول ، فهو ربط مبدأ العلية بالإستدلال ، وهذا أن لكل سبب ما يشاركه ، لأن مبدأ العلية ليس الفردية للغاية ، وإنما بمساعدة المبدأ الأخر .

وبناء على هذا فإنه ليس لدينا أية فكرة عن العلة والمعلول غير فكرة عن الأشياء كانت مرتبطة دائماً ، وفي جميع الأحوال الماضية بدت غير منفصلة عن بعض ، وليس في وسعنا النفوذ إلى سبب هذا الإرتباط المستمر ، وإنما نلاحظ هذه الواقعة فقط ، ونجد أنه تبعاً لهذا الإرتباط المستمر ، فإن الأشياء تتحد بالضرورة في الخيال ، فإذا حضر إنطباع واحد كون في الحال فكرة زميله المرتبط به عادة [2]، إذن فالعلية هي مجرد فكرة في ذهننا نشأت وتكونت بفعل إطراد الظواهر في العالم الخارجي .

وبهذا توصل "هيوم" إلى جملة من النتائج بعد بحثه في الإنطباع الذي ولدت منه فكرة السببية ، فالعلاقة السببية عند هيوم ليست حقيقة موضوعية ،ولا معطى فيزيائي في الأشياء ولا بنية منطقية في الفكر ، فهيوم ينفي التصور العقلي للعلية ، حيث يعتبر أن العقل مجرد ترتيب لتلك الأفكار التي تصدر عن المشاعر، و بهذا يقول : " على إفتراض تمامية كمال ملكاته العقلية ، لم يكن بإمكانه أن يستدل من سيولة الماء و شفافيته على أنه قد يخنقه، ولا من ضوء النار و حرارتها على أنها قد تحرقه ، فليس ثمة من شيء يكشف بخصائصه التي تظهر للحواس، لا عن الأسباب التي تحدثه ، ولا عن المسببات التي يتولد منها " [3] ، ويقصد من هذا أنه لا يمكننا أن ندرك عقليا أن هذه العلية مرتبطة بالمعلول ، أي أن الانسان لا يستطيع أن يتوصل بالعقل إلى المعرفة الكلية ، فهيوم ينكر وجود رابطة بين العلة و

[1] مارتن هيدغر – مبدأ العلية – ت.د. نظير جاهل - المؤسسة الجامعية للدراسات – دط- دس- ص 5.
[2] عبد الرحمان بدوي – مدخل جديد إلى الفلسفة – وكالة المطبوعات 28 شارع فهد السالم – الكويت – ط1 – 1975- ص 110.
[3] دفيد هيوم – مبحث في الفاهمة البشرية – مصدر سابق – ص 52.

المعلول ، وإن وجدت فهي مجرد تكرار لتلك الإنطباعات و الافكار ، أي أن العلاقة بين العلة و المعلول هي حادثتين تتابعتا و تلازمتا في الحدوث أمام إدراكنا ، فيحدث لي إنطباع حسي ، يعني أن هذا مجرد تتابع و تلازم بين حادثتين لا أكثر .

فهيوم يفسر هذا من خلال طرح مثال على كره البلياردو " إننا عندما تقوم بملالحظات العدد لها لكيفية تأثير كرات البلياردو، إحدا هما على الأخرى بقوى ميكانيكية، فقد نعرف من خلال هذه الخبرة كيف سيكون فعل الكرات في المستقبل، و يمكننا أن نكشف قوانين العلاقات السببية، مثلما يحدث على سطح مستوى عندما الكرة (A)التي سرعتها كذا وكتلتها كذا ترتطم بالكرة (B)التي سرعتها كذا وكتلتها كذا، فقواني ن العلاقة بين السبب والنتيجة تنبؤنا عن النتيجة التي لا بد من أن تقع إذا حدث سبب ما " [1] ، هذا يؤكد على أن عدم إمكانية الحصول على معرفة مستمدة من انطباعات حسية بما هي الضرورة في العلاقة بين السبب والنتيجة، فسيظل بإمكاننا أن تكسب معرفة هذه الضرورة عن طريق الإستقراء.

ويقول هيوم " أن الأسباب و المفاعيل تكشف بالعقل ... فلا أحد يتخيل أن جاذبية حجر المغناطيس يمكنها أن يكتشف بواسطة حجج قبلية " ، وبهذا لا يمكن الإستدلال على العلة و المعلول عقلياً ، فهيوم هنا ينكر أن يكون العقل كاشفا لتلك العلاقة ، فهو يرفض العقل مصدر للمعرفة ، فهيوم لا يؤمن بالمبادئ العقلية للسببية ، وبهذا فإن هيوم يؤكد على أن علاقة العلية لا تنشأ عن التفكير العقلي الخالص و يوضح ذلك من خلال هذا "...فمبدأ العلية لا يلزم من مبدأعدم التناقض ، ولا تناقض في تصور بداية شيء دون رده إلى علة "[2].

أي أن مبدأ عدم التناقض لا يمكن له أن يفسر أو يبرر العلاقة الموجودة بين العلة و المعلول ، ويقول أيضا " ... إن إستدلالاتنا القبلية ستكون عاجزة أن تكشف لنا عن أساس هذا التفضيل "[3] ،ويعني بهذا أن الإستدلال القبلي عاجز عن معرفة العلة و المعلول .

[1] محمد باقر الصدر – مرجع سابق – ص 105.
[2] يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة – مرجع سابق – ص 175.
[3] دفيد هيوم - تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص56.

لكن السؤال الذي يطرح حسب هيوم هو " فما هي الخبرة التي تقول لنا إن تلك هي الضرورة؟ هل نستطيع أن نرى الضرورة؟ وكيف نستطيع أن نرى ؟ كومضة زهرية اللون من الواضح أن الأمر ليس كذلك، هل نستطيع أن نسمع الضرورة؟ مثال، كصوت ذي طنين منخفض؟ طبعا، لا، كذلك ليست الضرورة شيئا يمكن نشعر به أو نشم رائحته ،أو أن نحصل بأي طريقة أخرى على انطباعات حسية عنه "[1] .

المقصود من هذا أن المعرفة لا يمكن معرفتها بالتجربة، وكذا أن الضرورة بين العلة و المعلول لا يمكن تبريرها حسيا، وعليه فهيوم ينكر التبرير التجريبي للعلية.

نستنتج من خلال هذا أن هيوم من خلال نقده للمبدأ العلة، قد رفض التربير العقلي وكذا التربير التجريبي بالرغم من أنه ذو نزعة تجريبية، لكن رفضه التبرير التجريبي من أجل إثبات الضرورة، كما يؤكد على العجز عن معرفة الضرورة.

إذن العلاقة السببية عند "هيوم "ليست حقيقة موضوعية ، ولا معطى فيزيائي في الأشياء ،ولا بنية منطقية للفكر ، بل هي تتشكل في الذات نتيجة توفر عوامل نفسية، ويوجد في الفكر البشري إتجاه كوني يمر من لفظ إلى أخر ، و ينبع من تجربة التكرار والمعاودة، وبهذا المعنى تظهر لنا التجربة إنتظام في تعاقب أو تتابع بعض الظواهر ، مثل الثلج الذي يتبع البرودة ،والتبخر الذي يتبع الحرارة ، تنبع فكرة السببية عندئذ من العادة .

فتبين له أن علاقة التجاور في المكان و التعاقب في الزمان هي التي جعلت الناس يعتقدون بوجود علاقة ضرورية بين السبب و النتيجة ، حيث يقول : " إن العادة هي الدليل الأكبر للحياة الإنسانية ، إذ هذا المبدأ وحده هوالذي يجعل تجربتنا مفيدة لنا ، ويجعلنا نتوقع من المستقبل نسقاً من الأحداث لتلك التي ظهرت في الماضي ، أما بدون العادة فإننا سنكون جاهلين تماماً لكل واقعة تتجاوز ماهو حاضر مباشر للذاكرة والحواس "[2] ،أي أن السببية موجودة في ذاتنا وليس في الأشياء الخارجية ، وبهذا رفض جميع مبادئ الميتافيزيقا .

[1] غنار سكيربك ونلز غيلجي – تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن 20 –ت . حيدر حاج إسماعيل – المنطقة العربية للترجمة – بيروت – ط1 – 2010 – ص493.

[2] دفيد هيوم – تحقيق في الذهن البشري – مصدر سابق – ص 74.

نستنتج مما سبق أن العلية هي أحد الشروط التجريبية التي تسمح بترابط الأفكار ،فالعلاقة السببية ليست علاقة موضوعية ، بل تتشكل في الذات نتيجة الإنفعالات والمشاعر المرتبطة بالعوامل النفسية ، فالعلية إعتقاد نفسي مصدره الخبرة الحسية ، وهذا المبدأ لا يمكن أن يؤسس للإستقراء ، لأنه ليس قانونياً موضوعياً كلياً ، وإنما هو قانون ذاتي ، وكل ماهو ذاتي لا يجوز أن يوصف بالقانون ، فهو ينبع من تجربة التكرار و العادة ، وبهذا فالتجربة ماهي إلا تعاقب وتتابع بعض الظواهر.

المبحث الثاني : نتائج تطبيق مبدأ العلية (رفض ونقد العلية):

لقد تعرض موقف "هيوم" من العلية لعدة إنتقادات سواء كانت من الفلاسفة المحدثين أو المعاصرين ، بحيث كان إنتقادهم من خلال طرحه لمبدأ العلية وإيجاد أنه عاجر على إثباتها، من بين الفلاسفة الذين وجهو إنتقادات ل "د يفيد هيوم" نجد كل من الفيلسوف "ايمانويل كانط"*و "محمد باقر الصدر" ** فالسؤال المطروح الأن :كيف كان نقد كل من كانط والصدر لتصور العلية عند دفيد هيوم ؟

1)- كانط : نجد الفيلسوف "كانط" لم يسلم بكل مقدمات هيوم ونتائجه ، وبذلك وجد سبيلاً لوضع مشكلة العلية وضعاً جديداً ، وليضع لها حلاً جديداً ، بحيث يرى كانط أن هيوم لجأ إلى التبرير النفسي للعلية وحصرها في العادة الذهنية ،لأنه إنتهى إلى درجة الشك المطلق ، ونسي أن العقل مزود بقوالب سابقة عن التجربة ويمكنها أن تبرر العلية ، فيرى كانط أنها تقوم أساس نظرية المقولات وهي إنشاء العقل ، كما يرى أنها ضرورية لكل معرفة فإذا سقطت هذه سقطت تلك [1]، أي أن مبدأ العلية لا يوجد في الواقع الحسي ، بل موجود في

*فيلسوف ألماني ، عاش حياته كلها في مدينة كونيغسبرغ في مملكة برةسيا ، كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة ن و أحد أهم الفلاسفة الذين كتبو في نظرية المعرفة الكلاسيكية ، وكان أخر فلاسفة عصر التنوير. (تاريخ الاطلاع: 9 أبريل 2014 — الرخصة: CC0).

**هو مرجع ديني شيعي و مفكر و فيلسوف إسلامي عراقي ، يعد أبرز مؤسسي حزب الدعوة الإسلامية و منظري أفكاره ،مؤلف لمجموعة كتب تعد الأبرز في الفكر السياسي الإسلامي الشيعي ، أعدمه النظام السابق في عام 1980 أثناء حكم الرئيس الأسبق صدام حسين بتهمة العمالة و التخابر مع إيران .(19 يوليو 2018 على موقع واي باك).

[1]إبراهيم مصطفى ابراهيم – منطق الاستقراء – المنطق الحديث – منشأة المعارف الإسكندرية – ط1 -1999 – ص 123.

العقل النظري ، إذن فمبدأ السببية بالنسبة لكانط ليس معطى حسياً لكنه مقولة عقلية فارغة وظيفتها تنظيم الإحساسات الوافدة من الخارج [1].

يقدم "كانط" برهان عن العلية على عدد من الفروض الأساسية يسلم بها ويجعلها مقدمات لبرهانه وإنكارها مستحيل ، لأنه يؤدي إلى الشك في الذاتية وهي كالتالي :

- ❖ لدينا معرفة بالتعاقب الموضوعي ، أي أننا نعتقد أن هناك تعاقب في عالم الظواهر ، أي أنه في عالم الأشياء تتعاقب حالاتها و حوادثها مستقلاً عن إدراكنا لها .
- ❖ يجب أن تكون المعرفة الإنسانية معرفة موضوعية ، فالخبرات الذاتية لا تؤدي إلى المعرفة حتى تكون أحكامنا عن العالم عامة وصادقة لكل إنسان .
- ❖ عالمنا عالم الظواهر ، فهو عالم موضوعي مستقل عن إنطباعاتنا الحسية وخبراتنا الذاتية [2].

وكذلك نرى أن "هيوم" نسي أن كل القضايا التركيبية تستند في قيامها إلى مبدأ العلية ، على سبيل المثال أن قضية سرعة الضوء تبلغ 300ألف كلم /ثا ليس لها أي علاقة بالعلية ، أي أن ليس كل التفسيرات العلمية هي تفسيرات علية ، وهذا نجده أيضاً عند كل من راسل و ريشنباخ و غيرهم ، بحيث رفضو الإعتقاد بالعلية قبلياً أو سيكولوجياً ، فهناك من يقبله كأساس لتجاربه ، وبذلك فقد فصلو بين كل من العلة والمنهج العلمي [3].

2)- محمد باقر الصدر :

يقول :" فنحن إذ نؤمن بعنصر الوجود ليس هو المميز الأساس للإعتقاد عن التصور ، نستند في ذلك أن العنصر قد يدخل في محتوى الفكرة ، وتظل الفكرة رغم ذلك تصوراً ، فإذا قيل لنا مثلاً "يوجد طائر له رأسان" ، ولم نصدق ذلك فسوف توجد في ذهننا فكرة "طائر له رأسان " ، على مستوى التصور فسوف نتصور وجوده أيضاً دون أن نعتقد به "

[1] حيدر حاج إسماعيل – بنية الثورات العلمية – مقال نشر في مجلة العرب و الفكر العالمي – دار الإنماء القومي بيروت – العدد الثالث و العشرون و الرابع و العشرون -2011-ص109.
[2] حيدر حاج اسماعيل – بنية الثورات العلمية – المرجع السابق – ص 124.
[3] محمود فهمي زيدان – الإستقراء و المنهج العلمي –مصدر سابق- ص 140.

[1]، وهنا هو يختلف مع "هيوم" الذي يرى أن الفرق بين كل من التصور والإعتقاد يكمن في الإدراك ، "فالصدر" يرى أن وجود فكرة ما صادرة عن تصور لا تحتاج إلى إعتقاد ، لأنه يرى بأنه التصور هوالذي يجعل لنا معرفة ذلك الشيء موجود أم لا .

ويقول ايضاً :" فدخول عنصر الوجود في محتوى الفكرة لا يكفي ليجعل منها إعتقاداً ، بل إن عنصر الوجود كأي عنصر من العناصر الأخرى التي ألف منها محتوى الفكرة ، يصلح للدخول في التصور و الإعتقاد معاً ، فلابد من فرق آخر يميز بين فكرتنا "عن طائر له رأسان" وفكرتنا عن " طائر له رأس واحد " ، مادام بإمكاننا أن نفترض الوجود في المحتوى من كل هاتين الفكرتين ، وتظل الفكرة الأولى رغم ذلك تصوراً والفكرة الثانية إعتقاداً [2]، وهنا يتضح أن " الصدر" نقد "هيوم" في فكرة تبرير الفارق بين التصور والإعتقاد ، حيث يرى أنه يجب إدخال المحتوى في العنصر الوجود يكمن في إدخال معنى التصور و الإعتقاد معاً، ويرى بأن التصور يختلف معه في تبرير ذلك الفارق .

ويقول "الصدر" ايضا:« إن "هيوم"حين فسر الإعتقاد على أساس ماتزخر به الفكرة من حيوية افترض أن هذه الحيوية تستمدها التجربة من الإنطباع المباشر ، أو بصورة غير مباشرة إذا كانت مرتبطة بعلاقة العلة والمعول بفكرة أخرى هي بدورها نسخة لإنب طاع ، ولامرتبطة بنسخة مباشرة من هذا القبيل ليست إعتقادا ، وهذه النتيجة تناقض الواقع ، لأننا جميعا نعلم أن عدداً كبيراً من الإعتقادات يوجد في الذهن البشري دون أن يكون نسخة لإنطباع ، أو مرتبطا بنسخة الإنط بلع بعلاقة العلة و المعلول [3]، فهنا " الصدر" يرى أن الإعتقاد موجود في الذهن وليس عبارة عن إنطباعات خارجية، حيث يرى أن الفكر لو كان محبوس في حدود التجربة والحس لم يكن بوسعه أن يملك معارف مستقلة عنها ، فهو يأكد على أن "هيوم" يستحيل له أن يستدل عن مبدأ العلية عن طريق مناهج الإستنباط التجريبي.

[1]باقر الصدر محمد – الأسس المنطقية للإستقراء – دار التعارف للمطبوعات – بيروت – لبنان – ط5 – 1986- ص 97.

[2]باقر الصدر محمد – الاسس المنطقية للإستقراء –مصدر سابق – ص 97.

[3]باقر الصدر محمد – الأسس المنطقية للإستقراء – المصدر السابق - ص 99 ص 100.

ونقد " الصدر" "هيوم" فيقول :«وأنا أرى أن الأفضل للفلسفة العقلية ، التي تؤمن بأن مبدأ العلية قضية عقلية قبلية ، أن تتجه بالقول أنه قضية اولية في العقل ...إذا أكد في الوقت نفسه عدم إمكان الإستدلال عليها بالتجربة ، وعجز الخبرة الحسية على إثباتها » ،أي مبدأ العلية في نظر "صدر" هو قضية عقلية عكس "هيوم" الذي رفض التسليم بالقضية القبلية التي تحمل في طياتها الأفكار الفطرية ، وكذلك نرى "الصدر" ينقد "هيوم " من خلال عجزه على إثبات مبدأ العلية بالتجربة بالرغم أنه يؤمن بما هو حسي، لأن "هيوم" كان يهدف إلى إيجاد إنطباع يشتمل على كل من الضرورة وحتمية الإرتباط بين حادثتين ، حيث يقول"الصدر" ويبدو أن "هيوم" لايرى ذلك ممكنا ، لأنه لايتصور أن بالإمكان الإستناد إلى التجربة والخبرة الحسية لإثبات شيئ إلا إذا كان ذلك الشيئ قد ظهر مباشرة في خبرتنا الحسية، وحيث أن خبرتنا بالحرارة و التمدد لم تنطبع عليها صفة الضرورة ، ولم يتمثل فيها الإتعاقب الحادثين ، فلا سبيل إلى الإستدلال على الواقع الموضوعي للعلية عن طريق التجربة والخبرة الحسية [1]، وهنا يتبين أن " الصدر" يرى بالرغم من أن "هيوم " يؤمن بالمذهب التجريبي القائم على الحس ، إلا أنه عجز على تبرير وتفسير مبدأ العلية، وهذا مادفع " الصدر" إلى نقده الذي يرى أنه ليس كل ماهو موجود في الواقع يجب إثباته بالتجربة ، لأن هذا يتناقض مع ماهو موجود.

فإذا كان الصدر لم يسر في خط هيوم في نقده للمذهب العقلي انطلاقا من فكرة علاقة العلية، فإنه كان متفقا معه في استحالة استنتاج مبدأ العلية من مبدأ عدم التناقض، وذلك بقوله: " إننا مع هيوم في تأكيده على أن مبدأ العلية لا يمكن استنباطه من مبدأ عدم التناقض، إذ لا يوجد أي تناقض منطقي في افتراض حادثة بدون سبب؛ لأن مفهوم الحادثة لا يستنبط ذاتيا فكرة السبب. وعلى هذا الأساس، يتوجب على الاتجاه العقلي في الفلسفة الذي يؤمن بعقلية مبدأ العلية وقبليته، أن يوضح طريقة تفسيره عقليا لمبدأ العلية، بدون أن يتورط في محاولة استنباطه من مبدأ عدم التناقض مباشرة" [2].

إن رفض الصدر لاستنباط فكرة العلية من مبدأ عدم التناقض، ورفضه أيضا الطرح الهيومي في تفسير العلية قاده لوضع نظرية مفسرة لفكرة العلية، وذلك باعتبار العلية فكرة

[1]باقر الصدر محمد – المصدر نفسه – ص 107 ص 108.
[2]محمد باقر الصدر - الأسس المنطقية للإستقراء – مصدر سابق- ص 111.

ثالثة: " فليس تصور العلية تصورا مركبا من تصور الشيئين المتعاقبين، فنحن حين نتصور علية درجة معينة من الحرارة للغليان، لا نعني بهذه العلية تركيبا اصطناعيا بين فكرتي الحرارة والغليان، بل فكرة ثالثة تقوم بينهما، فمن أين جاءت هذه الفكرة التي لم تدرك بالحس إذا لم يكن للذهن خلاقية لمعان غير محسوسة " [1].

إن هذا الخلط الذي وقع فيه هيوم في فكرة العلية من جانبها التصوري والتصديقي، والذي أدى به إلى إنكارها، صاحبه خلط آخر بين مبدأ العلية وعلاقة العلية وعدم التمييز بينهما، ويتضح هذا من خلال الأدلة التي قدمها هيوم ضد المذهب العقلي، هذا الأخير حسبه يرى بأن علاقة العلية يمكن إدراكها بصورة قبلية، لكن في الحقيقة أن المذهب العقلي نظرته من نظرة المذهب التجريبي في هذه القضية، يقول الصدر: " ونريد بمبدأ العلية المبدأ القائل:إن لكل حادثة سبب، ونريد بعلاقة العلية، العلاقة القائمة بين الحرارة والتمدد، أو بين الغليان والتبخر، أو بين أكل الخبز والشبع، فإن الاتجاه العقلي على الصعيد الفلسفي الذي يسبغ على العلية طابعا عقليا قبليا، يريد بذلك: أن مبدأ العلية من القضايا التي يدركها العقل بصورة قبلية مستقلة عن التجربة، ولا يدعي أن تلك العلاقات الخاصة بين الحرارة والتمدد، أو بين الغليان والتبخر.

فالصدر في هذا النص يقر بخلاقية وابتكار الذهن لهذا المعنى، وبالتالي رد مصدر العلية إلى العقل، حيث قوم باختراع المعنى المجرد، حيث يقول في هذا الصدد:" فنحن نحس مثلا بغليان الماء إذا بلغت درجة حرارته مائة، وقد يتكرر إحساسنا بهاتين الظاهرتين، ظاهرتي الغليان والحرارة آلاف المرات، ولا نحس بعلية الحرارة للغليان مطلقا، وإنما الذهن هو الذي ينتزع مفهوم العلية في الظاهرتين اللتين يقدمهما الحس إلى مجال التصور" [2]، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير فكرة العلية وفق ما يسمى بنظرية الانتزاع.

ولقد فسر دفيد هيوم العلية بضرورة سيكولوجية حيث يرى" بأن التشابه بين الحالات يخلق في الذهن انطباعا جديدا هو النموذج الفعلي للفكرة، لأنه بالمرة عندما نلاحظ التشابه في عدد كاف من الحالات، فإننا نحس مباشرة باستعداد الذهن للانتقال من موضوع إلى ذلك

[1] محمد باقر الصدر – فلسفتنا – دار الفكر – بيروت – لبنان – ط4 – 1973-ص 65.
[2] محمد باقر الصدر – فلسفتنا – مصدر سابق – ص 66 ص 67.

الذي يرافقه عادة، وإدراك هذا الأخير بوضوح و أكثر حيوية في استدلالاتنا بسبب هذه العلاقة". إذن فالانطباع المقصود هنا عند "هيوم" هو العادة التي تولدت منه فكرة الضرورة التي يراها بأنها ذاتية الانطباع التي تولدت عنه." فالضرورة هي شيء ما يوجد في الذهن وليس في المواضيع" .

إن هذا التفسير برأي الصدر" يلزم أن لا نصل إلى قانون العلية العام إلا بعد سلسلة من الحوادث والتجارب المتكررة التي تحكم الرباط بين فكرتي العلة والمعلول في الذهن، مع أنه ليس من الضروري ذلك، بحيث يمكن أن نستنتج علاقة علّية وضرورة بين شيئين ولا يزداد يقينه شيئا فشيئا انطلاقا من عملية تكرار الحوادث" [1].كما لا تزداد كذلك علاقة العلية قوة من خلال عملية التكرار.

أما فيما يخص النقطة المثارة من طرف الصدر بعد سلسلة الحوادث المتتابعة في الخارج، فهي فكرة العلة والمعلول في الذهن، هل هي علاقة ضرورة بينهما أم علاقة اقتران أو مقارنة، فإن كانت علاقة ضرورية فقد ت بثبت مبدأ العلية واعترف ضمنيا بقيام علاقة غيرتجريبية بين فكرتين، وهي علاقة ضرورة، وإن كانت علاقة مقارنة فلم يحقق هيوم ما أراد في تفسير عنصر الضرورة في قانون العلة والمعلول" [2].

كما أن الضرورة السيكولوجية ليس فيها أي اثر للإلزام العقلي؛ أي عند حصول إحدى الفكرتين بمجرد حصول الفكرة الأخرى، وبالتالي يرى الصدر " بأن الضرورة في مبدأ العلية ليس ضرورة سيكولوجية، بل هي ضرورة موضوعية"[3] .

كما يرى الصدر كذلك" بأن التداعي كثيرا ما يحصل بين شيئين دون الاعتقاد بعلية أحدهما للآخر، فليس الليل علة النهار، ولا النهار علة الليل. فلا يمكن إذن تفسير هذا العنصر بمجرد التعاقب المتكرر والمؤدي إلى تداعي المعاني" [4].

وإذا كانت الضرورة قائمة على علاقة الاقتران" فإن العلة والمعلول برأي الصدر يكونان مقترنين، ومع ذلك ندرك علية أحدهما للآخر، كحركة اليد، وحركة القلم حال الكتابة، فإن حركة اليد وحركة القلم توجدان دائما في وقت واحد، فلو كان مرد الضرورة

[1]محمد باقر الصدر – فلسفتنا – المصدر السابق - ص 76 ص 77.
[2] محمد باقر الصدر – المصدر نفسه – ص 77
[3]محمد باقر الصدر – فلسفتنا – مصدر سابق – ص 77.
[4]محمد باقر الصدر – المصدر نفسه – ص 78.

والعليـة على استتباع إحدى العمليتين العقليتين للأخرى بالتداعي، لما أمكن أن تحتل حركة اليد مرلكز العلة دون حركة القلم، لأن العقل أدرك الحركتين في وقت واحد، فلمـاذا وضـع إحـداهما موضع العلة والأخرى موضع المعلول" [1].فإدراك العلاقة بهذا المعنى عقلي وليس خاضـعا لرابطة تداعي المعاني .

إن هيوم" قد رفض التسليم بعلاقة العلية كحقيقة موضوعية، إذ لا سبيل إلـى إثباتهـا عقليا ولا تجريبيا، واتجه على هذا الأساس إلى تفسيرها على أساس ذاتي نفسي، فبدلا من أن تكون الضرورة علاقة قائمة بين أكل الخبز والشبع، يتصورها هيوم علاقة قائمة في الـذهن بين فكرة أكل الخبز والشبع" [2].

هذا الرفض يثير مشكلتين هامتين حسب الصدر: الأولى " أنه بالإمكان تصور العلية بمعنى الضرورة والحتمية باعتباره نسخة لانطباع معين، والثانية كيـف يمكـن أن نعتقد بموضوعية العلية دون أن تكشف لنا التجربة عن ذلك، ولا تكشف عن علاقة الضرورة. إن المشكلة الأولى،لاقت الحل عند "هيوم" باكتشاف مصدر العلية في انطباعات الأفكار بدل انطباعات الحس. أما المشكلة الثانية، إعترف بها وعلى أساسها قرر بأن علاقة العليـة ذاتية لا موضوعية" [3].

إن تخلص هيوم من المشكلة الأولى باعترافه بإمكانية تصور العلية وضع الصدر في موضع سائل عن الواقع الموضوعي لتصور العلية، مفترضا بذلك" أن العقل لا يمكـن أن يجيب لا بالسلب ولا بالإيجاب على هذه القضية، كقولنا مثلا: هل لفكرة العلية بين الحـرارة والتمدد واقع موضوعي" [4].

" إن الصدر يؤكد على أن هيوم لا يرى ذلك ممكنا لأنـه لا يتصـور أن بالإمكـان الاستناد إلى التجربة والخبرة الحسية لإثبات شيء ما" [5]،إلا إذا كان ذلك الشيء قـد ظهـر مباشرة في خبرتنا الحسية، وبالتالي "فالصدر" لا يختلف مع هيوم في معارضته لقبـول

[1]محمد باقر الصدر – المصدر نفسه – ص77.
[2]محمد باقر الصدر – الاسس المنطقية للاستقراء – ص115.
[3]محمد باقر الصدر – الاسس المنطقية للاستقراء – مصدر سابق – ص 115.
[4]محمد باقر الصر – المصدر نفسه – ص 116.
[5]محمد باقر الصدر – المصدر نفسه – ص 117.

مبـدأ العلية بوصفه قضية قبلية فقط، بل يختلف معه أيضا في اعتقاده بأن مبدأ العليـة لا يمكـن الاستدلال عليه بالتجربة.

وبهذا الموقف من العلية لكل من "كانط " و "الصدر" في إنتقادهم "لهيوم" نستنتج أن إثارة هيوم لمبدأ العلية كان فيه الكثير من المبالغة ، خاصة عندما جعلها أساس صحة الإستدلالات التجريبية ، فإنتقاد " الصدر" " لهيوم" كان في الكثير من المسائل من بينها رفضة للأفكار القبلية ، وعجزه على إثبات مبدأ العلية بالتجربة .

و أخيرا نستنتج مما سبق عرضه أن " ديفيد هيوم " من خلال دراسته لمبدأ العلية توصل إلى أن مبدأ العلية موجود في الذات الإنسانية و ليست في الأشياء الخارجية ، حيث يؤكد على أن مبدأ العلية ماهو إلا تتابع وتكرار للحوادث ، وهذا ما يطلق عليه إسم العادة ، فتوصل " هيوم " إلى أن سبب حضور الأفكار في الذهن تعتبر مجرد عادة عقلية ، و أكد على أن العلاقة بين العلة و المعلول هي وليدة الفكرة ، إذن مبدأ العلية عند " هيوم " إرتبط "بالعادة" فتكرار الحادثة يولد في الإنسان مايسمى بالطبع .

خاتمة

وفي ختام دراستنا هذه يمكن إحصاء و إجمال النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث و هذه الدراسة فيما يلي :

إن رفض هيوم لجل الأمور الميتافيزيقية ، جعله يحاول أن يطبع الميتافيزيقا بطابع العلمية وذلك من خلال إقامتها على تحليل الطبيعة الإنسانية وتنظيمها ، بهدف إستكشاف كل الخبايا و المبادئ التي ترتكز عليها الطبيعة الإنسانية ، فهو يريد نظرية عامة تفسر الأسباب ،التي تجعل الكائنات الإنسانية تفكر وتدرك وتفعل وتشعر ، فأصبحت الميتافيزيقا مع "هيوم" علماً للإنسان فأصبحت تتساؤل عن شروط ومبادىء المعرفة .

وما تميزت به فلسفة هيوم هو قيامها على الطبيعة الإنسانية ففي نظريته للمعرفة أكد على أن كل المعارف من قبيل الخبرة الحسية ، وذلك من خلال إعطاء تمييز بين كل من الأفكار والإنطباعات، و إعتباره أن كل ما يصدر عن الإنسان من إنفعالات و سلوكات كلها مرتبطة بالتجربة ، "فهيوم" يعطي الأولوية للإنطباعات الحسية على الأفكار ، حيث إعتبر أن الإنطباعات هي الأصول ، فما من فكرة بذات قيمة وذات وجود ، إذا كنا لا نستطيع تعين الإنطباعات الصادرة عنها ، كما نجد "هيوم" ينتقد وينفي وجود الأفكار الفطرية ، وذلك لأنه يرى أن ما يصدر عن الإنسان هو راجع للتجربة لا للعقل ، فيرى أن ما يصدر عن العقل هو مجرد عادة ذهنية و أن كل معرفة عنده هي إنطباعية حسية ، أي أنها ناتجة من الخبرة الحسية ، والأفكار العامة المجردة ليست في نظر "هيوم" غير أفكار عن أشياء و إنطباعات جزئية ، فالألفاظ عنده يعتبرها أفكار مستمدة ومكتسبة من خلال المشاهدة والتجربة الحسية و الإنطباعية .

ويفسر "هيوم" مبدأ العلية وذلك من خلال نفية للضرورة العقلية أو الأفكار القبلية ، ورده فالنهاية إلى التجربة والعادة، فيرى أن حدوث نتيجة معينة لا تعني أن لها علاقة لازمة مع سببها ، فالعلية هي مجرد معتقد يربط كل ظاهرة أو حادثة بالتتابع و التعاقب ، أي تكرار و إطراد الظواهر في الطبيعة ، ولهذا يؤمن بما هو تجريبي ، إلا أنه يرى بأن لا العقل ولا التجربة قادرين على تأكيد العلاقة بين العلة والمعلول .

فيرى أن ملاحظة هذا التشابه المتكرر تولد في أذهاننا إنطباعاً جديداً يمثل النموذج الفعلي لفكرة الضرورة ، والذي يعتبره هيوم أنه أصل فكرة العلية أو السببية ، حيث يقول "هيوم" أن التجربة السببية لا يمكن الكشف عن أكثر من الإطراد بين الأسباب والنتائج ، إن ما يسمى بالترابط المفترض وجوده بين الأشياء ليس إلا وهما ، لا يمكن أن تنشأ الفكرة المقابلة لهذا الترابط إلا تشابه عدد من الحالات المفردة للوقائع السببية التي تبدو كلما حضرت مترابطة بإستمرار ،وكلما ظهرت واحدة من هذه الوقائع يحتمل العقل بفعل العادة على إنتظار الواقعة الموالية ، وهذا هو الشعور الذي يجعل الإنسان يخلق في ذهنه إنطباع إمتلاك فكرة الترابط الضروري .

وبهذا أكد "هيوم" على أن العلية مصدرها الخبرة الإنسانية ، والذي يتمثل في إدراك تتابع بين حادثتين وتلازمهما تلازما متكرراً، و أننا نتيجة تكرار هذا التلازم أدت إلى أن تنشأ في عقولنا عادة هذا الإرتباط ، ومن ثم فإن فكرتنا عن العلية إنما ترجع إلى العادة النفسية التي تزودنا بالإعتقاد في تصور العلية ، وبهذا رفض جميع المبادئ الميتافيزيقية ، وعليه فإن مبدأ العلية عند هيوم إرتبط بالعادة ، لأن تكرار الحادثة يولد في الإنسان ما يسمى بالطبع .

قائمة
المصادر و المراجع

-المصادر و المراجع:

أ)- المصادر:

1- دفيد هيوم " **تحقيق في الذهن البشري** "- ت د - محمد محجوب - دار بيروت – لبنان -ط1 -2008 .

2- دفيد هيوم **" مبحث في الفاهمة البشرية** " - ت د - موسى وهبة - دار الفارابي - بيروت - لبنان - ط1 – 2008 .

3- دفيد هيوم " **رسالة في الطبيعة الإنسانية** " ت د – وائل علي سعيد – دار الفارابي – بيروت – لبنان – ط1 – 2008 .

ب)- المراجع :

1) إبراهيم مصطفى إبراهيم – " **الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم** "– دار الوفاء للطباعة و النشر – الإسكندرية -2001 .

2) أيوب أبو دية –" **العلم و الفلسفة الأوروبية الحديثة من كوبرنيق إلى هيوم** "– دار الفارابي – بيروت – لبنان – ط1 – 2009 .

3) برتراند راسل – " **تاريخ الفلسفة الغربية** " – ت . محمد فتحي الشظي – دار المصرية العامة للكتابة .

4) برتراند راسل –" **حكمة الغرب ج 2** "– ت . فؤاد زكريا- سلسلة عالم المعرفة – عدد 72 – منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت – ط1 - 1983 .

5) جيل دولوز – **الترجمة الذاتية " بحث في الطبيعة البشرية وفقا لهيوم "** - ت . أسامة الحاج – المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع – بيروت – لبنان – ط1 – 1999 .

6) رسول محمد رسول – **" المعرفة النقدية – مدخل إلى نظرية المعرفة "**– دار الكندي – الأردن – ط1 – 1996 .

7) ريتشارد شاخت –**" رواد الفلسفة الحديثة "**– ت . أحمد محمود – مكتبة الأسرة – برعاية سوزان مبارك .

8) زكي نجيب محمود –**" دفيد هيوم –مؤسسة هنداوي "**– 2021.

9) زكي نجيب محمود –**" قصة الفلسفة الحديثة "**– لجنة التأليف و النشر – 1936 .

10)عبد الرحمان بدوي –**" مدخل جديد إللى الفلسفة "**– وكالة المطبوعات – الكويت – ط1 – 1975 .

11) عثمان أمين –**" شخصيات و مذاهب فلسفية "**– دار جياء للكتب العربية – عيسى البابي الجلي و شركاءه – 1945 .

12) كريم متى –**" الفلسفة الحديثة عرض نقدي "**– دار الكتاب التحدة – 2001

13)مارتن هيدغر –**" مبدأ العلية "**– ت . نظير جاهل – المؤسسة الجامعية للدراسات – د ط – د س .

14) محمد باقر الصدر – **"الأسس المنطقية للإستقراء "**– دار التعارف للمطبوعات – بيروت – لبنان – ط5 – 1986 .

15)محمد باقر الصدر –**" فلسفتنا "**– دار الفكر – بيروت – لبنان – ط4 – 1973 .

16)محمود فهمي زيدان –**" الإستقراء و المنهج العلمي "**– دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر – ط1 – 2003 .

17)يوسف كرم **– " تاريخ الفلسفة الحديثة "**– دار المعارف – القاهرة – ط5 .

ج)- الموسوعات والمعاجم :

1) أندريه لالاند –**" موسوعة لالاند الفلسفية "** – ت . خليل أحمد – منشورات عويدات – بيروت– باريس – ط2 – 2001 .

2) جميل صلبيا –**" المعجم الفلسفي "**– دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان – 1982 .

3) عبد الرحمان بدوي –" **موسوعة الفلسفة ج 2** "– المؤسسة العربية للدراسات و النشر – بيروت – ط1 – 1984.

د)- المقالات :

1)- حيدر حاج إسماعيل – بنية الثورات العلمية – مقال نشر في مجلة العرب و الفكر العالمي – دار الإنماء القومي ببيروت – العدد الثالث و عشرون و الرابع وعشرون – 2011 .

ه)- المواقع الإلكترونية :

1- https://middle-east-online.com/تجريبية-ديفيد-هيوم-بين-الريبية-والذاتية

2- https://en.m.wikipedia.org/wiki/David_Hume

3- https://iep.utm.edu/hume/

4- https://plato.stanford.edu/entries/hume/

الفهرس

فهرس المحتويات

شكر

الاهداء

مقدمة .....ا

الفصل الأول : دفيد هيوم سيرته و مصادر فكره.....04

المبحث الاول : السيرة الذاتية لدفيد هيوم وآثاره.....04

المبحث الثاني : المصادر الفكرية لدفيد هيوم.....12

الفصل الثاني: مبدأ هيوم الحسي الفكرة و الإنطباع.....17

المبحث الأول : مفهوم الادراكات و مضمونها الفكرة والانطباع....17

المبحث الثاني : الفرق بين كل من الإنطباعات و الأفكار وأيها أصل للأخر.....20

الفصل الثالث: تطبيقات المبدأ الحسي على العلية 31

المبحث الأول : مفهوم العلية و تحليله عند دفيد هيوم 31

المبحث الثاني : نتائج تطبيق مبدأ العلية (رفض ونقد العلية).....42

خاتمة.....51

المصادر و المراجع.....54

الفهرس 58